حديث القلب

إنّ في ذلك لذكرى
لمن كانَ له قلبٌ، أو ألقى السّمعَ،
وَهُوَ شهيدٌ [ق ٣٧]

إعداد
الدكتور عبد المجيد البيانوني

دار نور المكتبات

كل الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ

الطبعة الثانية ١٤٢٦ مزيدة ومنقّحة

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الأئمّة الربّانيّين والأسـاتذة المـربّين الذيـن لا أنسىـ مـواقفهم، ولا زلـت أتعلّـم مـنهم، وأجـد بصـماتهم في حياتي..

وإلى الآباء والمربّين الذين يهمّهم أمر التربية، كما يهمّهـم مستقبل الأمّة..

وإلى أبنائنا الناشئين أداء لبعض حقّهم علينا..

أهدي هذه الرسالة أداء لحقّ النصح..

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

قال الله تعالى: ﴿ إنّ في ذلك لذِكرَى لمن كانَ لهُ قَلبٌ، أو ألقَى السَّمعَ، وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ ق.

قال الله تعالى: ﴿ والذين آمنوا أشدّ حبّاً لله. ﴾ البقرة ١٦٥.

وقال تعالى: ﴿ ياأيها الذين آمنوا، من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم، يحبّهم ويحبّونه. . (٥٤) ﴾ المائدة .

وفي الحديث الصحيح: (ألا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ) رواه البخاريّ ومسلم.

طابت بحبّ المصطفى الأوقات وتزّينت بمديحه الأبياتُ

إن المحبّة في القلوب حياتها وجميع من جهلوا الهوى أمواتُ

أثبتّ حبي مذ نفيت به السوى والنفي يأتي بعده الإثباتُ

إن تدّعي الأمم السوابق أن في الر رسل الكرام نظيره قل: هاتوا

الشيخ عيسى البيانوني رحمه الله تعالى

وهذا الحبّ أورثني كمالاً هديت به إلى نهج رشيدِ

الشيخ أحمد عزّ الدين ابن الشيخ
عيسى البيانوني رحمهما الله تعالى

وقال الشاعر:

تعصي الإله وأنت تزعم حبّه هذا لعمري في القياس بديعُ
لو كان حبّك صادقاً لأطعتهُ إنّ المحبّ لمن يحبّ مطيعُ

مُقَدِّمَة الطبعة الثانية

الحمدُ لله الذي بتحميدِه يُستفتَحُ كُلُّ كتَابٍ، وبذكرِه يُصدّر كلُّ خطابٍ، وبحمدِه يتنعّمُ أهلُ النعيم في دارِ الجزاءِ والثواب، وباسمِه يُشفَى كُلُّ داء، وبه يُكشفُ كلُّ غمٍّ وبلاء، وإليه تُرفعُ الأيدي بالتضرّعِ والدعاء، في السرّاءِ والضرّاء، والشدّةِ والرخاء، وهو سامعٌ لجميعِ الأصوات، بفنونِ الخطاب على اختلافِ اللغات، ومجيبُ الدعاءِ للمضطرّ، فلهُ الحمدُ على كلِّ ما أوْلى وأسدى، وله الشكرُ على كلِّ ما أنعمَ وأعطَى، وعلى ما أوضح من المحجّةِ وهدى..

وأصلّي وأسلّم على المبعوث رحمة للعالمين، سيّدنا ومولانا

وبعد؛ فلا يزال الوجود الإنسانيّ يئن من وطأة المادّيّة، التي لا تقف عند حدّ، وقد أحالت حياة الإنسان إلى ما يشبه الآلة الصمّاء، ومزّقتها بين رغبات الجسد الهائجة الجامحة، وما تفرضه من اللهاث وراء المال، للوصول إلى وسائل المدنيّة والرفاهية.. وبين الانصراف عن الدنيا، والإعراض عن مطالب الفطرة الحيويّة، والاستغراق السلبيّ في تلبية رغبات الروح، ولو بطريقة غارقة في الجهل والخرافة، والكذب والتضليل.. وبين

هـذين الاتّجـاهين تـنحطّ المجتمعـات البشـريّة إلى أسـفل سـافلين، ويـدفع الإنسـان الـثمن باهظـاً مـن صـحّته النفسـيّة، واسـتقراره النفسـيّ وأمنـه، وسعادته التي يتطلّع إليها في هذه الحياة، ويغادر الدنيا كما دخلها، لم يحسن لها فهماً، ولم يذق للسعادة فيها طعماً..

وعلى الرغم من هذا الواقع الذي يشترك في تشخيصه كثير من عقلاء الأمم، فإنّ الحضارة المعاصرة حضارة عليلة معوجّة، تقدّس الجسد، وتزري من شأن الروح، ولا تزال تصرّ على الانطلاق من الفلسفة المادّيّة، التي اكتوت بنارها، ذاقت ويلاتها، وكأن لسان حالها يقول: وداوني بالتي كانت هي الداءُ.. فلماذا تتّخذ هذا الموقف، وتصرّ عليه، وهي ترى بأمّ عينها أنّها تنحدر نحو الهاوية.؟! إنّها بكلّ بساطة لأنّها لا تجد بديلاً يقدّم لها، بصورة حضاريّة جذّابة، تجد فيه برءها وشفاءها.. والبديل عندنا وفي أيدينا نحن أمّة الإسلام.. ولكنّنا إذا لم نكن محسنين به لأنفسنا، فكيف نحسن به إلى غيرنا، ونتقن فنّ عرضه عليه.؟!

إنّها إشكاليّة مزمنة، لا تزال الأمّة تعاني منها، ولا يزال أولو النهى يبدئون ويعيدون فيها منذ أكثر من نصف قرن، ومع ذلك تتوزّع الأمّةَ شتّى الاتّجاهات، التي تنأى بها عن هذه الغاية، ولا تقترب منها.. بل تسير بها على عكس الاتّجاه.. وتجرّ على الإنسانيّة شتّى الويلات.. وتتحمّل الأمّة بذلك قدراً لا يستهان به من أوزار تقلّب الآخرين في متاهات التخبّط والضياع.. فضلاً عن تخلّفها هي وضياعها..

وإنّ أهمّ ما تميّز به ديننا الحنيف تلك النظرة المتوازنة لكيان الإنسان، التي بنيت عليها جميع مقاصد الشريعة وأحكامها وتكاليفها، وهي مظهر جمال هذا الدين وجاذبيّته، وسرّ تلاؤم الإسلام مع الفطرة، واستجابة الفطرة لدين الله، ممّا يشهد به المخالفون لهذا الدين، قبل أن يشهد به أولياؤه ومحبّوه..

مُقَدِّمَة الطبعة الأولى

الحمد لله ربّ العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، أحمده حمد الشاكرين، حمداً يوافي نعمه، ويكافئ مزيده، كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه، حمداً لا منتهى لحدّه، ولا محصيَ لعدّه إلا ما أحاط علمه، وأحصى كتابه، حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه، وهو الغفور الودود، ذو العرش المجيد.

وأصلّي وأسلّم على عبده ورسوله، سيدّنا محمّد، سيدّ الأوّلين والآخرين، تاج الكون، وغرّة القرون والسنين، الرحمة المهداة للعالمين، صاحب المقام المحمود، واللواء المعقود، والحوض المورود يوم الدين، وعلى آله وأصحابه، وأزواجه وأصهاره وذرّيته، وأنصاره وإخوانه، وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين، وبعد؛

فنحن في عصر غلبت فيه المادّية الجامحة، على القلوب والعقول، واستحكمت الأهواء والشهوات، واستحوذت على النفوس، وانقلبت الموازين، واجتاحت القيمَ الأعاصير، على وفرة ما أخرجت المطابع من كتب، وما قذفت أرحامها من مواليد، لم تعرف النور من قرون، وعلى كثرة ما أبدعت أبكار العقول من ثقافات وفهوم، حتى وصلت إلى حدّ التخمة والتكرار، والترف الفكريّ، البعيد عن سبيل العمل، والشاغل عن الأجدى الأهمّ من احتياجات المنهج ومتطلّباته،، مما جعلنا بحاجة ملحّة إلى إحياء ثقافة القلوب والأرواح، وأن نقيم جسور التواصل بين ثقافة

العقل، وثقافة القلب، لإعطاء القلوب حقّها وغذاءها من الحبّ الذي به حياتها وروحها، ولردّ شباب الأمّة إلى حالة الاتّزان، التي تمثّل الصورة الإسلاميّة المشرقة، التي بها تحلّ مشكلات الناس المستعصية، ويحيون الحياة الطيّبة، ويسعدون.

وبعد؛ فهذه رسالة موجزة، فيها جمل يسيرة، ومقتطفات من نبضات قلوب المحبّين أثيرة، أردت أن ألحق بها في السالكين، عسى أن أكون من حداة الركب للسائرين، وعسى أن توقظ في القلوب الغافية لواعج الحبّ المستكنّ، لتقبل على ما به حياتها وسعادتها ونعيمها، وروحها وراحتها، وعزّها في الدارين ورفعتها، ولا تكون ممن يشتري الخسيس بالنفيس فيكون في الآخرة من الهالكين.

وقد سمّيتها: " حديث القلب ". والحديث فيها مقصود به تحقيق حبّ الله تعالى، وحبّ رسوله المصطفى ﷺ، وذلك من مشكاة قول النبيّ ﷺ: (ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا..) [1].

وليس حديثنا هنا عن أصل الحبّ الذي هو فريضة محكمة، وإنما عن نفله وفضله، الذي هو روح حياة المؤمن، وسرّ سعادته في الحياة الدنيا، وفوزه في الآخرة بصحبة المصطفى ﷺ، ولن أكثر فيها من نقل الأقوال، التي تعبّر عن المحبّة وأذواق المحبّين

---

(1) . رواه البخاري في كتاب الإيمان برقم /١٥/ ومسلم في كتاب الإيمان برقم /٦٠/.

وأفهامهم، لأن ذلك يحتاج إلى مجلّدة كبيرة، ودونك المطوّلات كمدارج السالكين لابن القيّم رحمه الله وغيرها، وإنما تهمّنا الأحداث والمواقف، إذ هي التعبير الصادق عن أحوال النفس، وهي التي تؤثّر في النفس أكثر.

ولا يخفى أن حبّ المصطفى ﷺ ملازم لحبّ الله والإيمان به سبحانه، ولا ينفكّ عنه، وهو الوسيلة إلى حبّ الله تعالى وطاعته، واتّباع أمره واجتناب نهيه، ويأتي تبعاً لذلك الحبّ في الله تعالى لعباد الله المتّقين، والبغض في الله لمن خرج عن منهجه أو حاد عن سبيله.

والله تعالى أسأل أن يحفظني من الزلل، ويرزقني الإخلاص في القول والعمل، وأن ينفع بهذه الرسالة، ويجعلها موقظة لقلوبنا، محرّكة لهممنا، وأن يكتب بها الأجر الجزيل الكامل، لكل من علّمني حرفاً، أو أفادني نَفَساً، وأخصّ بذلك من رأيت منه، وذقت بمجالسته، وتعلّمت من صحبته، أحوال الحبّ الصادق، والشوق المبرّح، والأدب الجمّ، والحنين المتصل إلى الله ورسوله ﷺ، أستاذي وشيخي، ومرشدي ومؤدّبي، الشيخ أحمد عزّ الدين البيانوني، رحمه الله تعالى، وأجزل مثوبته، ورفعه عنده في عليين، مع الذين أنعم الله عليهم، من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، ذلك الفضل من الله، وكفى بالله عليماً.

ربّنا تقبّل منا، إنك أنت السميع العليم، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

جدّة ليلة الجمعة ١٢ / ٣ / ١٤١٥ هـ (١).

وكتبه راجي عفو ربه الكريم
له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين
عبد المجيد بن أسعد البيانوني

(١) . وأنا أكتب هذه المقدّمة في هذه الليلة جاءني خبر وفاة والدي رحمه الله من المستشفى، ثمّ شغلت عن نشر هذه الرسالة إلى أن يسّر الله تعالى مراجعتها والنظر فيها في غرّة ذي الحجّة من عام ١٤١٩ هـ.

حديث القلب

قوى الإنسان ومكانة الحبّ والعاطفة بينها:

في الإنسان ثلاث قوى تحكم حياته، وتوجّه سلوكه: قوّة العقل، وقوّة الجسد، وقوّة النفس أو الروح؛ فقوّة العقل تنتج عنها قوّة الفكر، وأنواع الاختراعات الماديّة والإبداعات التي تخدم حياة الإنسان، وتحقّق رفاهيّته، وتقلّل من تعب جسده، وطول عنائه، وقوّة الجسد تمكّن الإنسان من معالجة الأمور التي تحتاج إلى قوّة العضلات، وتعين الإنسان على الدفاع عن نفسه، وتحقيق أمنه، وسلامة الجسد هي السبيل لتمكين الإنسان من ممارسة قواه الأخرى بسويّة واقتدار، وقوّة النفس أو الروح تسمو بالإنسان عن الاهتمام الحيوانيّ الذي ينحطّ به، ويتدنّى إلى مستوى لا يليق بكرامته التي جعلها الله له، ومكانته السياديّة المتميّزة في هذا الوجود.

وكلّ قوّة من هذه القوى تتطلّع إلى أن تأخذ حقّها، وتكافح في حياة الإنسان لتستوفي نصيبها من تطلّعاتها ورغباتها، كما أن ممارسة كلّ قوّة من هذه القوى الثلاث تشعر الإنسان بلذّة خاصّة، تغريه بمزيد من الحرص عَلَى ممارستها والاستزادة منها كما أنّها تنعكس في الحالة الطبيعيّة السويّة على القوى الأخرى باللذّة والتأثير.

ولاشكّ أنّ مما يعين إحدى هذه القوى على أن تغلب ما سواها، وتحدث اختلالاً لمصلحتها في تفكير الإنسان وسلوكه: إنما

هو قوّة تركيب هذه القوّة، وتميّزها على القوى الأخرى، فعندما تكون القوّة الجسديّة في إنسان ما في أوجها، ويكون ممّن أوتي بسطة في الجسم، وعافية في البدن، فإنّ هذا مما يعينه على أن ينخرط في الاستجابة لرغبات جسده بصورة أكبر ممّن لا يكون كذلك، وعندما تكون قوّة العقل في إنسان ما في أوجها، ويكون ممّن أوتي عقلاً نيّراً، وذكاء وقّاداً فإنّ هذا مما يجعله يتّجه إلى التفكير والتنظير، والبحث والتأمّل، ويجد في ذلك من اللذّة والمتعة ما ينسيه رغبات قواه الأخرى، وعندما تكون قوّة الروح أو النفس في إنسان ما هي الغالبة، ويكون ممّن أوتي روحاً طموحاً، ونفساً رقيقة، فإنّ هذا مما يجعله يتّجه إلى الروحيّات والغيبيّات، ويحرص على التعرّف عليها، وتلبية أشواق نفسه منها، وقد يهمل رغبات قواه الأخرى، ولا يبالي بها.

وهنا تتجلّى عظمة الإسلام إذ أمرنا أن نعطي كلّ قوّة من قوانا حقّها، وألاّ نهمل قوّة من القوى، أو نقصّر في حقّها على حساب قوّة أخرى..

ولا يخفى أنّ وعي هذه الحقائق وإدراكها يعدّ على درجة كبيرة من الأهميّة إذ ينبني عليها سلامة الخطاب الدعويّ، وحسن التعامل مع الناس، وأن يعطى كلّ مدعوّ حقّه من الخطاب الذي يتناسب مع اهتماماته وتوجّهاته؛ فالخطاب العقليّ للإنسان العاطفيّ قد يؤدّي إلى عكس ما نتوخّى من التأثير، والخطاب العاطفيّ للإنسان العقلانيّ قد يؤدّي إلى إساءة فهم ديننا، وعدم الاستجابة لدعوتنا، والخطاب العقليّ أو العاطفيّ للإنسان

المتمادي في تحقيق رغبات جسده قد لا يعيره أيّ اهتمام، فلابدّ لنا من أن نضع في اعتبارنا اهتماماته وتوجّهاته، ونحسن دعوته وخطابه.

وإذا كان لنا أن نرجّح بين أنواع الخطاب؛ فإن الخطاب العاطفيّ المرتكز على أسس عقليّة واضحة بيّنة يكاد يكون أرجح ما يؤثّر في الإنسان، ويجتذب اهتمامه.

ولعلّ أهمّ ما يرجّح كفّة قوّة الروح، ويقدّمها على سائر القوى: أن الإنسان كلّما تقدّم به العمر ضعفت قوى بدنه، وقلّ اهتمامها بنوازعها ورغباتها، وضعفت قوى عقله كذلك، وتراخت حدّتها وقوّة توقّدها، وقويت عواطف روحه، وازدادت تطلّعاتها، وتأجّجت أشواقها ورغباتها.

ومن هنا كان الحديث عن الحبّ وتأجيج عواطفه، وتحريك أشواقه أرجح حجّة، وأوسع تأثيراً من الحديث الفكريّ، الذي يخاطب العقول، ويقارع الحجّة بالحجّة..، ومتى كانت حجّة القلوب ضعيفة واهنة، وهي التي تفتح عين البصيرة، وتسمو بالإنسان إلى آفاق العمل والسلوك.؟!

وإن أعظم الحبّ وأخلده وأبقاه ما توجّه إلى الهدف الأسمى، والمقام الأعلى، ألا وهو: حبّ الله ورسوله ﷺ.

الحبّ لله ورسوله ﷺ أعظم المقامات وأرفع المنازل : وهو أعظم مقامات الإيمان، وأرفع منازل الدين، وركن العبوديّة الركين.

وهو المنزلة التي فيها يتنافس المتنافسون، وإليها يشخص المجدّون العاملون، وإلى عَلَمها يشمّر السابقون، وعليها يتفانى المحبون، وبِرَوْحِ نسيمها يتروّح العابدون، فهو قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة عيون الألبّاء، وهو الحياة التي مَن حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلّت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام.

ومنزلة المحبّة هي روح الإيمان والأعمال، والمقامات والأحوال، التي متى خَلَت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه، تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبداً واصليها، وتُبَوِّؤهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها، وهي مطايا عبوديّة القوم لله تعالى، التي مسراهم على ظهورها دائماً إلى الحبيب، وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب.

تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة، إذ لهم من معيّة محبوبهم أوفر نصيب، وقد قضى الله يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة: " **أنّ المرءَ مَع مَن أحَبَّ** " [1] ، فيالها من نعمة على المحبين سابغة.!

---

(١) . جزء من حديث فيه قصّة سيأتي بتمامه مع تخريجه.

مفقود لا يعوّض بشيء: ولقد فقدت أمّتنا منذ زمن بعيد روح الحبّ والحنان، وغذاء القلوب والأرواح، ولذّة العواطف السامية، التي تغطّي على جميع اللذائذ والطيّبات، اللهمّ إلاّ ومضات هنا وهناك، وغرقت في اقتناص لذائذ الجسد ومتعه، من المطعم والمشرب، والملبس والمنكح، واللهو واللعب، والحرص على الجاه والرئاسة على الناس، ولقاء الخلان والتفوّق على الأقران.. فلم تخرج من ذلك بثمرة ولا طائل، بل لم تزل تعاني من خواء القلب، وتلهّف الروح إلى ما به سعادتها ونعيمها؛ ورحم الله الشاعر المبدع في تشخيصه وتحليله إذ يقول: " قاتل الله ذلك اليوم الذي مضى، ولم أذق فيه لذة الحب، ولا بارك الله في الساعة التي مضت، ولم تهب فيها نفحة من نفحات الحب، وسحقاً للحياة إذا قضيتها كلها في تحكيم العقل والخضوع للمنطق ".

" بل إن الحب هو محصول الحياة، ولبّ اللباب، وقد أجاد القائل: " نظرت في هذا العالم فإذا هو بيدر واسع، ونظرت فيه فإذا " الحُبُّ " هو الحَبُّ الوحيد، وكلّ ما عداه فهو تبن وحشيش، وهشيم وحصيد ".

روح البطولة وسرّ العظمة: هذا هو " الحبّ " الذي امتاز به من امتاز من الأبطال، ونوابغ الرجال والعبقريين بين أقرانهم وأمثالهم، وعاش به من عاش من الضعفاء وأوساط الناس، وخلّف آثاراً عجز عن إنتاجها أقوى الرجال وأغناهم، وملكه الرجال فقهروا الأمم، وملكته الأمة فقهرت العالم.

هذا هو " الحب " الذي أفلست فيه هذه الأمة في العهد الأخير، فملكت مالاً طائلاً، وعلماً واسعاً، وجاهاً عريضاً، ودولاً

كثيرة، ولكنها أفلست في " **إكسير الحياة** "، فأصبحت جسداً ميتاً، تحمله الحياة على أكتافها.

هذا هو " **الحبّ** " الذي فقدته هذه الأمة في العصور المتأخّرة، فأصبحت تائهة وراء رموز الكفر والضلال، مبلبلة الخاطر، مشتتة القلب.

* طاقة أهدرناها، فأهدرت طاقاتنا: هذا هو " الحبّ "، الذي كان من آثار فقده، في حياة الأمّة ما يبثّه الشاعر محمّد إقبال في شكواه: " يا ربّ ! إن المؤمنين قد انتشروا، وكاد المخلصون أن يندثروا، ولم تعد الصحراء ترى حداة القوافل، ولا المتعبّدين في المنازل. . ولا يهمّنا أن فاضت خزائن الكفّار بالنضار، ولكن الشكوى أن يصيبنا الفقر والقصور، حتى لا نجد للجنّة صداق الحور، ولا ثمن القصور. .

إن جمال أمّة محمّد ﷺ، لا يزال يجتذب القلوب، بإشراقه الساطع، فأحرق حبّ متاع دنيانا بذلك الشرر من وميض محبّتك، وأرسل فَراشك مرّة أخرى يطُف حول نار حبّك، ومُر البرقَ القديم بإحراق القلوب الجامدة، وأنقذ أبناء خير أمّة أخرجت للناس، من ظلمة هذا اليأس القاتل المميت، وابعث فيها عزائم الصدّيق والفاروق، لتحمل المشعل مرّة أخرى، وترتاد للأمم الطريق. .

ربّ اهد القلوب إلى قبلة الحجاز، وأعطها جناحاً من الإيمان لتعرف قوّة الطيران. . ربّنا وأنت الحكيم القادر. ! احلل عقدة من لساني يفقهوا قولي. .

أعد الطيور المغرّدة إلى أغصان الصنوبر، فقد فرّت من روضها إلاّ بلبلاً، يحمل في قلبه ضجّة القيامة وهول المحشر. . أعد الأوراق الذابلة إلى روضها الأخضر، وجدّد في المسلمين ظمأهم إلى حياض المحشر. . " .

الإفلاس المروّع : هذا هو " الحبّ " الذي كان من أعظم الطبقات إفلاساً فيه: الطبقة العصرية المتعلمة في هذه الأمة، فكانت أجوفها روحاً، وأضعفها مقاومة، وأخفها وزناً، وأكدرها حياة، وأضلّها عملاً.

وقد صدق شاعر الإسلام محمد إقبال رحمه الله إذ قال: " إن كارثة المسلمين في هذا العصر، أنهم يحملون القلوب، ولا يعرفون المحبوب. . أنهم يملكون مادة الحبّ، ولا يعرفون من يشغلونها به، ويوجهونها إليه " .

إن الحبّ أعظم قوّة دافعة، وعاطفة محرّكة، وطاقة باعثة، به يظهر الفرق جلياً بين إيمان المؤمنين، وأفكار الفلاسفة المهوّمين، وبه يكون الإيمان حياً نابضاً، بعد أن يكون مغشّى بغشاوات الشهوات والأهواء، مترعاً بحبّ الدنيا، والسعي وراء حطامها..

إن هذه القوّة الدافعة، والعاطفة المحرّكة، والطاقة الباعثة عندما نحسن استغلالها وتوظيفها: تحرق لنا المراحل، وتختصر لنا الطريق، وتحبط مخطّطات أعدائنا ودسائسه..

إن هذه القوّة الدافعة تذيب من النفوس رعوناتها، وتستخرج منها أرفع ما فيها وأزكاه، ولا تزال تقدح زنادها، لتشرق أنوارها، وتزكو أسرارها، ويتألّق عطاؤها وإبداعها..

إن هذه القوّة الدافعة، والطاقة المحرّكة تحرق الضغائن، وتستلّ السخائم، وتغطّي مساحات من الخلل في النفس لا تغطّى بسواها مهما بلغ شأنه، وتجعل النفوس المتنافرة كالجسد الواحد، يحكمه القلب السليم الذي اتّضح هداه، وسماه على الأعراض هواه..

إن هذه القوّة الدافعة تنهض بالهمم الوانية، فتلحق المقلّين المقصّرين بركب المكثرين السابقين..

وإنّ الحبّ إن لم يوجّه إلى الغايات الشريفة، والأحوال الزكيّة، توجّه إلى الأهواء المفسدة، والشهوات المدمّرة، وأصبحت حياة الإنسان بذلك تافهة رخيصة، أسيرة مستعبدة..

إنه طاقة ضخمة، لا تقبل الإهمال والتعطيل، وإلاّ فإنها تنقلب إلى قوّة مفسدة مدمّرة.. كواقع حال أكثر أبناء الأمّة اليوم.

لقد استغرقت أهواؤنا وشهواتنا هذه الطاقة الحيّة، والمنحة الإلهيّة البديعة، وضيّعت منها الكثير الكثير، وراء فتنة الأموال والأولاد، والجاه والنساء، والتفاخر بالمظاهر وأنواع الزينات..

هذا هو الحبّ الذي يسمو بالإنسان ويعليه، وحقٌّ على كلّ مكلّف أن يسعى لنيل مكارمه، والتمتع بجلاه، وما أحرى العاطلين عنه أن يستشعروا عظيم الخسران بما يفقدون، وأن يشدوا بلسان الحال والمقال مع من أعلن ندبهم والحرقة على إفلاسهم:

على نفسه فليبكِ مَن ضاع عمرُه وليس له فيها نصيبٌ ولا سهمُ

والذين آمنوا أشدّ حبّاً لله. ! والذين آمنوا أشدّ حبّاً لله.! لأنّهم يدعون الله رغباً ورهباً، ويعبدون الله في السرّاء والضرّاء، ولأنّ قلوبهم امتلأت بتعظيم الله تعالى وخشيته، وإجلاله وهيبته.. ولا يلوّثون قلوبهم بالتعلّق بأحد سوى الله..

والذين آمنوا أشدّ حبّاً لله.! لأنّهم يؤثرون مرضاة الله تعالى على أيّ هوىً أو رغبة، ويبذلون في سبيل الله مهجهم وأرواحهم، ويرون ذلك قليلاً في جنب الله ونصرة دينه.!

والـذين آمنـوا أشـدّ حبّـاً لله.! لأنّهـم يـأوون إلى ركـن الله المكـين، ويتمسّكون بحبل الله المتين، ويلوذون بحمى الله الذي لا يضام: ﴿ ومن يعتصم بالله فقد هُدِي إلى صراط مستقيم.. () ﴾ آل عمران.

والذين آمنوا أشدّ حبّاً لله.! لأنّهم يعيشون مع الله.. ويشهدون أنّ الكون بما فيه خلق الله وملكه، وأنّ الأمر أمره، والنهي نهيه، وأنّه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا رادّ لقضائه، ولا معقّب لأمره، له الملك، وله الحمد في السموات والأرض، وله الحمد في الأولى والآخرة..

والذين آمنوا أشدّ حبّاً لله.! لأنّهم يتقلّبون على الجمر، ويتلذّذون بالصبر، ولا ترهبهم قوّة، ولا تأسرهم شهوة، ولا تحكمهم نزوة، ولا يبالون بكيد، ولا يحدّهم قيد..

والذين آمنوا أشدّ حبّاً لله.! لأنّهم يشتاقون إلى الله، ويحبّون لقاءه، فيحبّ الله لقاءهم، ويحسنون الظنّ بالله، فيكرمهم الله بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر..

والذين آمنوا أشدّ حبّاً لله.! حقيقة تذهل عبدة الطاغوت، وأولياء الشيطان، وتقتلهم همّاً وغمّاً، وتجعل مكرهم وخططهم في تباب، وتذهب مع السراب.. حقيقة تجعل الصراع بين الحقّ والباطل أكبر من صراع الندّ مع الندّ، مهما ملك الباطل من قوّة المادّة، وأسباب القوّة، ومهما وقف الحقّ مجرّداً منها.. وتجعل الباطل يتصاغر أمام هيبة الحقّ

وعزّته.. ﴿ فأمّا الزبد فيذهب جفاءً، وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.. () ﴾ الرعد.

قال الإمام ابن جزيّ في تفسيره لهذه الآية: " اعلم أنّ محبّة العبد لربّه على درجتين: إحداهما المحبّة العامّة التي لا يخلو منها كلّ مؤمن، وهي واجبة. والأخرى المحبّة الخاصّة، التي ينفرد بها العلماء الربّانيّون، والأولياء، والأصفياء، وهي أعلى المقامات، وغاية المطلوبات، فإنّ سائر مقامات الصالحين: كالخوف، والرجاء، والتوكّل، وغير ذلك، فهي مبنيّة على حظوظ النفس، ألا ترى أنّ الخائف إنّما يخاف على نفسه، وأنّ الراجي إنّما يرجو منفعة نفسه، بخلاف المحبّة، فإنّها من أجل المحبوب، فليست على المعاوضة.

واعلم أنّ سبب محبّة الله معرفته، فتقوى المحبّة على قدر قوّة وتع المعرفة، وتضعف على قدر ضعف المعرفة، فإنّ الموجب للمحبّة أحد أمرين وكلاهما إذا اجتمع في شخص من خلق الله تعالى كان في غاية الكمال: الموجب الأوّل: الحسن والجمال، والآخر: الإحسان والإجمال، فأمّا الجمال فهو محبوب بالطبع، فإنّ الإنسان بالضرورةِ يحبّ كلّ ما يستحسن، والإجمال مثل جمال الله في حكمته البالغة، وصنائعه البديعة، وصفاته الجميلة الساطعة الأنوار، التي تروق العقول، وتهيج القلوب، وإنّما يدرك جمال الله تعالى بالبصائر، لا بالأبصار، وأمّا الإحسان فقد جبلت القلوب

على حبّ من أحسن إليها، وإحسان الله إلى عباده متواتر، وإنعامه عليهم باطن وظاهر: ﴿ وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها.. ﴾ ويكفيك أنّه يحسن إلى المطيع والعاصي، والمؤمن والكافر، وكلّ إحسان ينسب إلى غيره فهو في الحقيقة منه، وهو المستحقّ للمحبّة وحده.

اعلم أنّ محبّة الله إذا تمكّنت من القلب ظهرت آثارها على الجوارح من الجدّ في طاعته، والنشاط لخدمته، والحرص على مرضاته، والتلذّذ بمناجاته، والرضا بقضائه، والشوق إلى لقائه، والأنس بذكره، والاستيحاش من غيره،.. وخروج الدنيا من القلب، ومحبّة كلّ من يحبّه الله، وإيثاره على كلّ من سواه، قال الحارث المحاسبيّ: " المحبّة تسليمك إلى المحبوب بكلّيّتك، ثمّ إيثارك له على نفسك وروحك، ثمّ موافقته سرّاً وجهراً، ثمّ علمك بتقصيرك في حبّه " [١].

مسئوليّة الدعاة المجدّدين : فما أحوج الدعاة إلى دين الله تعالى، أن يدركوا أثر الحبّ وسرّه، وأن يقدّروا وزنه وأثره، ليعرفوا سرّ نجاح من نجح من السابقين واللاحقين، من الدعاة المربّين، والأئمّة الربانيين، لعلهم يقتفون آثارهم، ويلحقون بركابهم، فيحسنون التعامل مع الناس، والدخول إلى قلوبهم، فيكونون على قدم النبوّة سائرين، وبهداها مهتدين: ﴿ قُل هذهِ سَبيلي، أدعُو إلى الله علَى بَصيرةٍ، أنا ومَنِ اتّبعَني، وسبحانَ الله، وما أنا مِن المشركين ﴾ يوسف ١٠٨.

---

(١) . التسهيل لعلوم التنزيل ٦٧/١/.

دعاوى المحبّة وبيّناتها: ولما كثر المدّعون للمحبّة طولبوا بإقامة البيّنة على صحة الدعوى، فلو يُعطى الناس بدعواهم لادّعى الخَلِيُّ حُرقة الشَّجِيِّ.

فتأخر الخلق كلّهم، وثبت أتباع الحبيب ﷺ في أفعاله وأقواله وأخلاقه، فطُولِبُوا بعدالةِ البيّنة بتزكية: ﴿ يجاهِدُون في سَبيلِ الله، ولا يخافُون لومةَ لائِم ﴾ [المائدة ٥٤].

فتأخر أكثر المحبين وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم. فهلموا إلى بيعة: ﴿ إنّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أنفسَهم وأموالهم بأنّ لهُم الجنةَ ﴾ [التوبة١١١].

فلما عرفوا عظمة المشتري، وفضل الثمن، وجلالة من جرى على يديه عقد التبايع، عرفوا قدر السلعة، وأن لها شأناً، فرأوا من أعظم الغَبْن أن يبيعوها لغيره بثمن بخس، فعقدوا معه **بيعة الرضوان** بالتراضي من غير ثبوت خيار، وقالوا: " **والله لا نقيلك ولا نستقيلك** ".

فلما تم العقد وسلموا المبيع، قيل لهم: مذ صارت نفوسكم وأموالكم لنا رددناها عليكم أوفر ما كانت، وأضعافاً معاً: ﴿ ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيلِ الله أمواتاً. بل أحياءٌ عندَ ربهم يُرزَقُون (١٦٩) فرحينَ بما آتاهُم الله مِن فضلِه.. (١٧٠) ﴾ آل عمران.

شجرة الحبّ وسقياها: وإذا غُرست شجرة المحبة في القلب، وسُقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب أثمرت أنواع الثمار، وآتت أُكلها كل حين بإذن ربها.

شرف الحبّ ومنزلته: **ويكفي الحبَّ في الإسلام منزلةً وشرفاً، أن الله تعالى أوجبه على المؤمنين كافّة، وهدّد من يحيدون عن سبيله، أو يتنكّبون طريقه، فقال عزّ من قائل: ﴿** قل: إن كانَ آباؤُكم وأبناؤُكم وإخوانُكم وأزواجُكم وعَشيرتُكم، وأموالٌ اقترفتمُوها، وتجارَةٌ

تخشَونَ كسادَها، ومَساكنُ ترضونَها، أحبَّ إليكُم مِن الله ورسولِه، وجهادٍ في سبيلِه، فترّبصُوا حتّى يأتيَ الله بأمرِه، والله لا يَهدِي القومَ الفاسقين (٢٤)﴾ التوبة.

يقول القاضي عياض رحمه الله تعالى في بيان الآية الأولى:

(فكفى بهذه الآية حضاً وتنبيهاً، ودلالة وحجّة، على إلزام محبّته وفرضها، وعظم خطرها، واستحقاقه ﷺ لها، إذ قرّع الله تعالى من كان ماله وأهله وولده أحبّ إليه من الله ورسوله ﷺ، وأوعدهم بقوله: ﴿ فتربّصوا حتى يأتي الله بأمره ﴾، ثمّ فسّقهم بتمام الآية، وأعلمهم أنهم ممن ضلّ، ولم يهده الله، فلا يصدق إيمان المؤمن، ولا يذوق حلاوته، ويجد بين جوانحه روعته، حتى يكون الله ورسوله ﷺ أحبّ إليه مما سواهما).

وجعل الله سبحانه حبّ نبيّه ﷺ وطاعته سبيلَ حبّ الله تعالى وطاعته، وبرهان الصدق في ذلك، وأنّ الله لا يقبل من العباد سوى ذلك؛ فقال سبحانه: ﴿ قُل: إن كنتُم تحبّونَ الله فاتّبعُوني يحببكُمُ الله، ويَغفِر لكُم ذنوبَكم، والله غفورٌ رحيمٌ ﴾ آل عمران ٣١.

وعن أنس رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: (ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلاّ للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ) (١).

---

(١) . رواه البخاري في كتاب الإيمان برقم /١٥/ ومسلم في كتاب الإيمان برقم /٦٠/ ورواه الترمذي والنسائي.

وهذا الحديث يحمل معاني عظيمة جليلة، هي من أعظم حقائق الإيمان، وأصوله ولبابه؛ ولا بد من وقفة يسيرة عندها، لنستجلي ما تشير إليه ونستبينه، وقد فصّل القول في ذلك الشيخ الدكتور محمّد عبد الله دراز رحمه الله فقال:

ـ " **ما سواهما** " يتناول الأموال والأولاد والوالدين والأهلين والناس أجمعين، كما فصّلته الروايات الأخرى؛ فعن أنس ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)[1].

" أما معنى المحبة هاهنا؛ فقد زعم بعض الناس أنها لا تتصور بحقيقتها بين الخالق والمخلوق، إذ لابدّ فيها من مشاكلة ومجانسة بين المحب والمحبوب، وذلك مستحيل في حقه تعالى، فتأول محبة الله بمعنى العمل بطاعته، وليست الطاعة هي المحبة بل هي إحدى ثمراتها.

ولو كانت المحبة كما يزعم هذا القائل، لا تبنى إلا على قاعدة التجانس المادي، والتزاوج من الفصيلة الواحدة، فلماذا نشم الرياحين وننظر إلى الحدائق المنسّقة، والأنهار الجارية.؟ بل لماذا نحبّ اللذائذ العقلية والكمالات المعنوية.؟

---

(١) . رواه البخاري في كتاب الإيمان برقم /١٣/ و/١٤/ ومسلم في كتاب الإيمان برقم /٦٣/ وغيرهما.

إنّ هذا القائل لم يفهم من المحبة إلاّ أدنى أنواعها إلى الفهم، وهي محبّة الحيوان للحيوان ولم يذق ما وراءها من مراتب.

وحقيقة " **المحبّة** " أوسع من ذلك؛ فهي ميل القلب إلى كلّ ما يرضاه ويستحسنه، وبواعث هذا الإحسان تختلف:

ـ فمنه ما يبعث عليه الطبع الجثماني، كمحبة الصورة الحسنة والصوت الجميل والرائحة الزكية.

ـ ومنه ما يبعث عليه العقل، كمحبتنا للحكماء والبلغاء، ولأهل البر والإحسان، ولأهل الصلاح والتقوى، وكل ما هو كمال وخير، إما لذاته وإما لما يؤديه إلينا من نفع.

ومحبة الله ورسوله ﷺ هي أرقى أنواع هذه المحبة العقلية وأقواها، فمن كان باعث المحبة عنده معرفة ما في المحبوب من كمال ذاتي، فالله تعالى أحقّ بمحبته، إذ الكمال المطلق خاصّة ذاته، والجمال الأتمّ ليس إلا لصفاته، والرسول ﷺ أحق من يتلوه في تلك المحبة، لأنه أكرم الخلق عند ربه، وهو ذو الخلق العظيم والهدي القويم، ومن كانت محبته للغير تقاس بمقاس ما يوصله إليه ذلك من الغير من المنافع، وما يغدقه عليه من الخيرات، فالله تعالى أحق بهذه المحبة أيضاً، فإن نعمه علينا تجري مع الأنفاس ودقات القلوب، ولا نعمة إلا هو مصدرها: ﴿ **وما بِكُم مِن نعمةٍ فمِنَ الله** ﴾ النحل ٥٣، ﴿ **وإن تعُدّوا نِعمةَ الله لا تحصُوها** ﴾ إبراهيم ٣٤، وهذا الرسول الكريم الرءوف الرحيم، هو واسطة النعمة العظمى، إذ هو الذي أخرجنا الله به من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى، واستنقذنا به من النار بعد أن كنا على شفا حفرة منها، فليس

بعد الله أحد أمنّ علينا منه، ومحبّته في الحقيقة شعبة من محبة الله تعالى، قال ﷺ: (أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ، وَأَحِبُّونِي بِحُبِّ اللهِ، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي بِحُبِّي) (١).

" وليس معنى المحبة العقلية أن يدرك العقل تلك الكمالات والفضائل في المحبوب، ويعتقد عظمته وعلو منزلته، وإن لم تشعر النفس بالميل إليه كما مثله البيضاوي بالمريض يميل إلى الدواء بمقتضى عقله، وإن كان ينفر منه بطبعه، كلا ! فإن من كانت محبته لله ورسوله ﷺ كمحبته للدواء المرّ جدير بأن يقال عنه: إنه وجد مرارة الإيمان لا حلاوته، وإنما يجد حلاوة الإيمان من كان هواه في تلك المحبة مناصراً لعقله، ومسايراً له جنباً إلى جنب.

" غير أننا حين نتكلّم عن وجوب محبة الله ومحبّة رسوله ﷺ، ووجوب إيثارهما بالمحبة على ما سواهما، تتشوف النفس إلى معرفة نوع هذا الوجوب: هل هو من قبيل وجوب الأصول والأركان الاعتقادية؟ أم هو من وجوب الفروع العملية. ؟

والجواب يختلف تبعاً لاختلاف المعنى المقصود من المحبة، إذ يراد منها تارة خصوص المحبة القلبية، وتارة هي مع آثارها العملية، فالمحبة بالمعنى الأول واجبة وجوب الأصول قطعاً، فمن كان حبّه لنفسه أو لشيء من الأشياء كحبه لله ورسوله أو أشدّ،

---

(١) . رواه الترمذي في كتاب المناقب عن رَسُولُ اللهِ برقم /٣٧٢٢/، وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ إِنَّمَا نَعْرِفُهُ مِنْ هَذَا الوَجْهِ.

فليس في قلبه من الإيمان مثقال حبة من خردل، لأن الله تعالى جعل هذه المحبة الراجحة من لوازم الإيمان، وجعل ما دونها من أوصاف المشركين فقال تعالى: ﴿ **ومِن الناسِ مَن يتّخِذُ مِن دُونِ اللّه أنداداً، يحبُّونهم كحُبِّ الله، والذينَ آمَنُوا أشدُّ حباً للّهِ** ﴾ البقرة ١٦٤.

ـ **فإن قال قائل**: إن هذا الحكم يخرج كثيراً من المسلمين عن الإيمان.

ـ **قلنا**: بل لا يخرج عنه إلا من كان كافراً عريقاً في الكفران، وبرهاننا الاختبار، فلنعمد إلى رجل من عامة المسلمين، ولنقل له: " قدّر في نفسك أنك رأيت رسول الله ﷺ، وقد قصده أحد أعدائه بسوء، وكنت بالخيار بين أن تسلمه، فينال منه عدوه، وبين أن تدافع عنه، فتهلك دونه فأي الأمرين تختار.؟ "، لنقل له ذلك، ولندعه يحكم بوجدانه وعاطفته، فهل لو كان أضعف الناس إيماناً، وأكثرهم عصياناً، يتردد لحظة في أن يقول: بل أفتديه بنفسي وأهلي وما ملكت يميني، فذاك الشعور هو مقياس تلك المحبة الراجحة، التي تخامر قلب كل مؤمن، إلا أن الإنسان كثير النسيان، فتبقى عنده هذه المحبة كامنة مغمورة، مادام سلطان الهوى والطبع متحكماً، ولكنه إذا ذُكّر تذكّر، فمن لم يجد في نفسه هذا الشعور إذا ذكر به فهو كاذب في دعوى الإيمان.

نعم، المحبة الكاملة الرجحان، لا يقف الأمر فيها عند تمني حياة الرسول ﷺ، والاشتياق إلى رؤيته، بل تتصل فيها محبة

ذاته، وتمني حياته بمحبة سنته، وتمني علوّ كلمته، وانتصار شريعته، إذ كل شيء من المحبوب محبوب، بل لا يكمل رجحان المحبة، مالم تثمر تلك الوجدانات القلبية ثمراتها الخارجية، وتستتبع آثارها العملية.

ومما يعين على ذلك معرفة حكمة الشريعة، وأنها إنما وضعت لمصالح العباد في العاجل والآجل، فليس فيها أمر إلا لمصلحة المكلف، ولا نهي إلا لدفع ضرر عنه، فإذا رسخت هذه المعرفة، وطالعتها النفس آناً بعد آن، اتصل حبّ الشريعة بحبّ صاحبها، وإذا انضمت إلى تلك التجربة العملية باعتياد الطاعات، ترعرعت نواة المحبة ونمت وآتت ثمراتها حتى لا تكون قرّة عينه وراحة قلبه إلا في عمل بطاعة الله ورسوله ﷺ.

وهاهنا مراتب متفاوتة بين فريضة ونافلة، فكلما كان المرء أكثر إيثاراً لطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ على استيفاء الحظوظ الدنيوية كان أقوى لهما محبّة، وأصحّ إيماناً، وكلما تهاون في شيء منها دلّ على ضعف إيمانه بهما، وقلة محبته لهما بقدر ذلك التهاون.

فالاتباع هو علامة المحبة ودليلها: ﴿ **قل : إن كنتُم تحبُّونَ الله فاتّبِعُونِي** ﴾، وبهذا تبين أن تعليق الإيمان على المحبة الراجحة في قوله ﷺ: (لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ.. الخ)، تعليق صحيح في حقيقة الإيمان ومجازه، لأن أصل الإيمان موقوف على أصل ذلك الرجحان، وكماله موقوف على كماله، والله المستعان.

الحبّ هو المرتقى الصعب والمنهل العذب والمورد الرحب: صعب لأنه يكشف أسرار القلوب، وفيه الحسرة والوجيف، وحرقة الوجد، ولوعة الفقد، وافتضاح الأحزان، واضطرام الأشجان، وصعب كذلك، لأن لواعج الحبّ لا تحدّها العبارات، ولا تترجم عنها الكلمات، ولا يمكن أن تخضع لرسوم الحروف، وآفاق المعاني، مهما استعانت بالاستعارات والكنايات والتشبيهات.

وإذا شكّك متشكّك فيما نقول من العجز عن التعريف والتحديد فنقول: " عرّف لنا النور.؟ أو عرّف لنا اللذّة التي تجدها في الجمال والكمال، وبديع صنع الكبير المتعال..؟ "، فإن عيي عن ذلك، فهو لا شكّ عن وصف لواعج الحبّ أعيا وأعجز..

ولعلّ أجمع مايدفع عن المحبّ ما استعجم عليه من هاتيك الحقائق والمعاني، أن يقول لسائليه عمّا يجد ويعاني: " **فيه مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر** "، وأن يقول لناقديه: " من ذاق عرف، ومن حُرِمَ انحرف " .

فإن لم تذق معنى شراب الهوى دعنا .

وهو منهل عذب، لا أعذب منه على نفس المحبّ، ولا أشهى؛ وهل أمتع لنفس المحبّ من ذكر من يحبّ، وتكرار حديثه، والترنّم بذكراه، والتغنّي بمآثره..!

وإنما هي إشارات تبثّ الشذى، ونفثات تحمل الجوى، وزفرات وحسرات، تذهل اللبّ وتفضح الهوى، وتترجم عن بعض المشاعر، وتخفّف لوعة المحبّ الشاكر..

* دافع تحصيل الحبّ، وأعظم به من دافع. ! واعلم أخي المؤمن، أن من أعظم ما يدفعك إلى تحصيل محبّة الله تعالى ومحبّة رسوله ﷺ: أن تعلم أن محبّتك لله ورسوله ﷺ، هي أثر عن سبق محبّة الله لك، فإذا تحقّقت من نفسك أنك تحبّ الله ورسوله ﷺ، فاستبشر أن الله تعالى يحبّك، لأن الله تعالى يقول: ﴿ **يأأيُّها الذينَ آمنُوا، مَن يرتدّ منكُم عَن دينِه فَسوفَ يأتِي الله بقومٍ، يحبّهُم ويحبُّونَه**.. (٥٤) ﴾ المائدة .

فذكر سبحانه أنّ أول صفة لهم: أنهم يحبّهم الله تعالى.

وكذلك سبقت محبّة رسول الله ﷺ للناس جميعاً، حبّ أيٍّ منهم له صلوات الله وسلامه عليه، لأن الله تعالى أرسله رحمة للعالمين، ومقتضى ذلك أن يحبّ الناس، ويحرص على خيرهم وهدايتهم، وهذا ما كان عليه صلوات الله وسلامه عليه، فقد كانت دعوته لقومه، وهو يناله أشدّ الأذى منهم: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ) [١].

وإنما مثل ذلك كمثل محبّة الوالد والوالدة للولد، فكما أن محبّة الوالد والوالدة لولدهما، تسبق محبّة ولدهما لهما، ومحبّة الولد لهما هي أثر عنها، فكذلك محبّة رسول الله ﷺ للإنسانيّة عامّة، وللمؤمنين خاصّة، تسبق محبّتهم له، وتتقدّم عليها.

---

(١) . رواه البخاريّ في كتاب أحاديث الأنبياء برقم /٣٢١٨/ و ومسلم في كتاب الجهاد والسير برقم /٣٣٤٧/ عن عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي نَبِيّاً مِنْ الأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، وَيَقُولُ:.

ومن لم يستشعر ذلك من نفسه، ويحرص على تنمية محبّة الله ورسوله ﷺ في قلبه، فليبك على نفسه، ولتتقطّع أنفاسه حسرات على ما فقد من حلاوة الإيمان وأنس اليقين وثمراته، وليعلم أنه من القاسية قلوبهم، الغافلين المعرضين، الغارقين في بحار الأهواء والشهوات، مهما حافظ على رسوم ظاهرة، وحرص على إقامة الاحتفالات، وحضور المهرجانات، وأنه ممن يقابل الإحسان بالإساءة والنسيان، مهما تحرّك لسانه بأذكار وأوراد، لأنها لا تؤدّى بما تحمل من معان وحقائق، والمعوّل عند علاّم الغيوب على ما في القلوب، من حقائق الإيمان اليقين، وصدق الطاعة والاستجابة..

* إشارات ونفثات: وإذا كان لا بدّ لنا من الوصف والإشارة، وتقريب الحبّ والتشويق إليه برشيق العبارة، فنقول وبالله تعالى وحده التوفيق:

والحبّ الذي نريده ونتحدّث عنه، لا غلوّ فيه ولا تقصير، ولا تبجّح ولا دعاوى، إنّه صبغة ربّانيّة، ونفحة إلهيّة، تصطبغ بها العبوديّة الخالصة لله تعالى، فتمحو الحواجز بين أنواع التكليف، وتبقى محصورة في نوعين، لا يعرف العبد لهما ثالثاً: ما يحبّ الله ويرضى، وما لا يحبّ الله ويرضى.. { صبغة الله، ومَن أحسنُ مِن الله صبغة، ونحنُ لهُ عابدُون } [البقرة ١٣٨].

وإنّ لون الحبّ أجمع لون لألوان العبوديّة الصادقة؛ إنه كلون الطيف، الذي يجمع الألوان كلها في لون واحد، هو لون البياض وشفافيّته وإشراقه، إنه يجمع الخوف والرجاء، والصدق والعلم، والصبر والشكر، والتسليم والتعظيم، والتوكّل واليقين، والأنس والرضا، والإحسان والمراقبة، إنّه حصن المؤمن من فتنة الدنيا،

ومن فتن الأهواء والشهوات، التي تعصف بالعقول والقلوب، فيصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا، والمعصوم من عصمه الله..

ولغة الحبّ تخاطب المحبّ في كلّ موقف.. وأمام كل عمل.. وعند كل حركة أوسكون: " إذا كنت محبّا . . فهذا إلى ربّك أحبّ . . " إنّه امتحان يفوز بعده المؤمن بهذه الشهادة: { **والذين آمنوا أشدّ حبّاً لله** } [البقرة ١٦٥]، وإنّها لشهادة أكرم بها من شهادة، لا أرفع منها ولا أجلّ، ولا أفضل منها ولا أكمل.

والحبّ غيرة وفداء.. وتضحية وعطاء.. ومروءة وإيثار.. وإعراض عن الأغيار.. ولسان حال المحبّ يقول دائماً، وفي كل حال: " نفسي دون نفسك . . وروحي دون روحك . . أفديك بنفسي ومالي . . وفداك أبي وأمّي . . ".

والحبّ نور.. يسمو بصاحبه إلى آفاق، لا يعرفها أصحاب الرسوم، ولا يطمحون إليها، ويرزق صاحبه الشفافية والصفاء، التي هي أعزّ لديه من الغذاء والهواء..

والحبّ نار.. تحرق حجب الشهوات.. وتمزّق غشاوة الأهواء والشبهات.. وتذيب كدورات الطبع.. وترهف مدارك السمع.. وترقّق كثافة الحسّ.. وتهذّب رواسب الطين، التي تشدّ الإنسان إلى غلظ الطبع وثقلة الأرض.

ينفع المحبّ ويرفعه؛ أليس " المرءُ مع من أحبّ "، بشهادة الحبيب المصطفى ﷺ، ويدفع المقت والغضب؛ كما قال ﷺ لعمر رضي الله عنه: (لا تدري يا عمر.! إِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ اطَّلَعَ عَلَى

أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ) [١]، وقد أحسن إذ صاغ هذا المعنى الشاعر بقوله:

إذا ذكرت ذنوبي دار في خلدي ذنب المحبّ مع الأحباب مغفورُ

وقال آخر:

وإذا المحبّ أتى بذنبٍ واحدٍ جاءت محاسنه بألفِ شفيعِ

الحبّ ينفع ويرفع، ويدفع ويشفع: والحبّ يشفع ويقدّم الوثيقة التي تحكم بحسن العاقبة، ألم يقل كعب بن مالك ﷺ في محنته لابن عمّه أبي قتادة ﷺ: " يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدُكَ بِاللهِ هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ﷺ..) [٢]، ويريد بذلك أن يقول: " فلماذا لم يشفع لي حبي حتى الآن..! "، ولكنّ الحبّ لا يمنع أن يحاسب المحبّ على دعواه، وأن يمحّص في الحبّ، ليظهر راسخ القدم من سواه، بل إنه ليقتضي ذلك ويوجبه، والعاقبة للصادقين الراسخين..

والحبّ نشيد عذب، تترنّم به ألسنة المحبّين، وعالم رحب تتقلّب فيه أرواحهم، ليس بأمانيّ يدّعيها أسير هواه.. ولا دعاوى تتشدّق بها بعض الشفاه..

إنه شوق وعذاب، وحنين واغتراب، وإشفاق من المقت والحجاب، وشدو بأعذب الألحان، فيما يرضي الرحمن.

---

(١) . رواه البخاري في كتاب التفسير برقم /٤٥١١/.

(٢) . رواه البخاري في كتاب المغازي برقم /٤٠٦٦/.

إنه مسارعة فيما يحبّ المحبوب.. وإيثار لما يحبّ.. وتلذّذ بالمشقّة فيما يحبّ.. وبذل للمهجة في سبيله ومرضاته..

التربية على الحبّ **والتربية على الحبّ وبالحبّ أجدى وسائل التربية نفعاً، وأقواها تأثيراً**، ويؤكّد ذلك ما جاء في الحديث الشريف: **(أدّبُوا أولادَكم على ثلاثِ خصالٍ: حبّ نبيّكم، وحبّ آلِ بيته، وتلاوةِ القرآن..)** (١).

وفي ذكر أهل البيت في هذا الحديث بشرى كريمة، ولطيفة مهمّة تدلّ على أنّ الله تعالى جعل فيهم قدوات طيّبة للمؤمنين في كلّ عصر وجيل، فنسل النبيّ ﷺ الطاهر الزكيّ لا ينقطع منه الخير إلى يوم القيامة، ولا يغرّنّك من شذّ أو انحرف، أو ادّعى الانتساب للدوحة الكريمة زوراً وبهتاناً: لأسباب سياسيّة، أو لتحقيق منافع دنيويّة عاجلة، فأمّا الزبد فيذهب جفاءً، وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض..

فإنّ آل محمّد ﷺ كلّ تقيّ، ألم يقل النبيّ ﷺ: **(سلمانُ منّا أهل البيت)** (٢).؟ فقرّبت تقواه نسبه غاية القرب، وجعلته من أهل البيت، وقال للسيّدة فاطمة رضي الله عنها، وهي من هي في قربها من النبيّ ﷺ وإيثارها عنده ومنزلتها، ومحبّة النبيّ ﷺ

---

(١) . رواه أبو النصر عبد الكريم بن محمّد الشيرازيّ في فوائده، وابن النجّار في تاريخه عن عليّ ﷺ مرفوعاً، وقال المناوي في شرحه على الجامع الصغير: ضعيف، كما في كشف الخفاء ١/٧٦/.

(٢) . رواه الطبرانيّ والحاكم عن عمرو بن عوف، وسنده ضعيف، كما في كشف الخفاء ١/٥٥٨/.

الخاصّة لها، ورفعة مكانتها: (.. يَا فَاطِمَةُ بنت محمّد أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ فَإِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللهِ شَيْئاً..) (١).

* ومن أجمع ما قيل في الحبّ : ما ذكره الإمام ابن القيّم رحمه الله عن أبي بكر الكتاني، قال: جرت مسألة في المحبة بمكة أعزها الله تعالى ـ أيام الموسم ـ فتكلم الشيوخ فيها، وكان الجنيد رحمه الله أصغرهم سناً؛ فقالوا: هات ما عندك يا عراقيّ.؟ فأطرق رأسه ودمعت عيناه، ثم قال:

" عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، فإن تكلم فبالله. وإن نطق فعن الله. وإن تحرك فبأمر الله. وإن سكن فمع الله. فهو بالله ولله ومع الله ". فبكى الشيوخ، وقالوا: ما على هذا مزيد، جزاك الله خيراً يا تاج العارفين.

* شوق المحبّ ودموعه : والمحبّ يتقلّب في كلّ أحواله بين خوف وقلق، وخشية وإشفاق، وشوق ورجاء.. خوف أن يؤخذ بذنبه، ويفضح بتقصيره، وخشية غالبة ألا يقبل منه عمل، وألا يفلح له سعي وأمل.. وشوق ورجاء، عندما يقف في ساحة الجود والرحمة، والفضل والعطاء.. قد قيدت حركاته وسكناته قيود الأدب، ورسمت علاقاته حدود الاتّباع، فلا تراه إلا بين رياض الجنّتين، وحياض الموردين..

---

(١) . رواه مسلم في كتاب الإيمان برقم /٣٠٣/ والترمذي برقم/٣١٠٩/ والنسائي برقم /٣٥٨٤/.

ولله دمعة منه.! فاضت من قلبه قبل أن تفيض من عينيه، فغسلت أوضار ما علق به من الهوى، وأشرقت بها أنـوار القـرب والرضا، ثمّ فاضت من عينيه لتغسل عنهما غبار الأكدار، وزحمة الأغيار، فتتأهّل لنضرة النعيم، والنظر إلى وجه الله الكريم.

* ما أبعد الناس عن هذا المنهل الكريم !؟ وإننا على وفرة ما كتب في سيرة النبيّ ﷺ وشمائله، وخصائصه وفضائله، عن حقوق المصطفى على أمّته وعلى العالمين، لا نزال نشكو من الجفاف الروحيّ، والبرود العاطفيّ، نحو هذا الحبيب الأعظم ﷺ، ذلك لأن كثيراً منا يفتقدون الجسر الذي يربط بينهم وبين المصطفى ﷺ فهم يعرفونه، ولم يألفوه، ويسمعون سيرته وشمائله بآذانهم، ولم يعقدوا الصلة بينهم وبينه بقلوبهم، ويحبّونه بمقتضى الإيمان وعاطفته، ولكنهم لا يؤثرونه على أنفسهم وأموالهم، وأهليهم وأولادهم، ولنقل بتحديد أكثر، ومعذرة إذا كان الكلام شديداً، فالحقّ مرٌّ، والواقع الذي نراه أمرّ، إنهم لا يؤثرونه على ذواتهم التي أتخمت بالتضخّم وحبّ الذات، وامتلأت بالعجب والغرور، حتى لم يعد فيها متّسع لشيء من النور، وغرقت في لجج من ظلمات الهوى والأثرة، بعضها فوق بعض، وتهالكت على حبّ الدنيا وإيثارها، واللهاث وراء حطامها، فأنى لها أن تخرج عن هذه الدائرة الرعناء العفنة، إلى رحب النور الغامر، والسناء الباهر، الذي سمّاه خالقه سبحانه: " **سراجاً منيراً، ونوراً مبيناً..** ".

ولقد تحدّث كثير من علماء الأمّة، سلفاً وخلفاً، عن علامات المحبّة ومظاهرها وآثارها، ليحاسب المؤمن نفسه على دعاويها، ويقدّم البرهان على شرف الانتساب إلى رحاب الحبّ، وقدس القرب، وكيلا يلبّس إبليس على ذوي النفوس المريضة، بدعاوى عريضة، وهمم مهيضة، فيحسب الإنسان نفسه من الأولياء المقرّبين، وهو يغوص في لجج العصيان والطين.

ولكن القليل القليل، هم الذين تحدّثوا عن السبيل التي تكرم المؤمن بشرف الوصول، إلى رحاب الحبّ الموصول، بمرضاة الله والقبول.

وإذا كان أكثر ما ذكر من علامات المحبّة ومظاهرها، يعدّ سبيلاً للحبّ، وسقيا لغرسه المبارك، وشجرته الطيّبة، ولكنّ هذه العلامات والمظاهر لا بدّ وراءها من حقائق، لأنها بحدّ ذاتها، لا تنشئ الحبّ ولا تبنيه، ولا تحرّكه ولا تحييه، إذ تؤدّى في أكثر الأحيان، بصورة شكليّة ظاهرة، وتتحوّل إلى عادة من العادات، فتفقد روحها، وتخرج عن الخشوع المطلوب، والاتّصال بالحقائق الإيمانيّة، الداعية إليها، الباعثة على فعلها.

* خطر الرسوم والمظاهر في الجناية على أصول الدين وحقائق الإيمان: وإن من أخطر ما تبتلى به الأمة في دينها، أن يتحول الدين في مفهومها وسلوكها إلى رسوم وشكليات، ومظاهر واحتفالات، لم يشرعها الدين، ولم يأمر بها، يلتزم بها الناس، ويظنون أنهم يؤدّون بذلك حقّ الله تعالى، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وأن عملهم هو أقصى مايطلبه منهم الدين، وأقصى ما يعبّر به الإنسان عن تعظيمه وتوقيره، وحبّه وتقواه..

وكثيراً ما يكون التزام الرسميين بهذه المظاهر والاحتفالات تغطية على ما يمارسونه من مواقف خارجة عن

الدين وهديه، يتقرّبون بذلك إلى العامّة، ويخدعون البسطاء من بعض الخاصّة، فما وزن هذه المظاهر والشكليّات في سلّم التكاليف الشرعيّة، وحقائق الدين ومبادئه، التي لا يرضى الله تعالى، بحال من الأحوال التفريط بها أوالتهاون.؟! وإن التفريط بها أو التهاون، مع الحرص على تلك المظاهر والاحتفالات، أشبه باتّخاذ آيات الله هزواً، واتّخاذ هذا الدين لهواً ولعباً، فأيّ تكريم لرسول الله ﷺ، واحتفال بدين الله ممن يصدّون عن سبيله، ويحاربون أولياءه والدعاة إلى دينه.؟!

وإذا أردت برهاناً أوثق، ودليلاً أدقّ وأعمق: فاعلم أن للإنسان طاقة وقدرة، وبين يديه وقت وفراغ، وقد أمدّه الله بفسحة من العمر، فإذا استنفد جهده وطاقته، ووقته وفراغه، فيما لم يطلب منه، فأنى له أن يؤدي ما طلب منه؟ وأنى له أن يحقّق ما يريد الشرع تحقيقه، وهو لم يسلك الطريق المؤدية إليه..

ومن جانب آخر، نرى حقائق الإسلام ومبادئه، وأوامره ونواهيه، وكثيراً من تكاليفه مهدورة مضيّعة.. وكأن هناك مخطّطاً مدروساً، يستهدف الإسلام الذي أنزله الله لسعادة البشرية كافّة، وجعله ديناً ومنهج حياة، يراد له أن يفرّغ من حقائقه وأصوله، ومبادئه وتكاليفه، ليشتغل الناس بمظاهر شكليّة، يهتمون بها ويعتنون، ويحرصون عليها ولا يفرّطون، ويتعلّقون بها، وهي لا تغيّر من الواقع شيئاً، ولا وزن لها في إسعاد الفرد، ولا إصلاح المجتمع..

وإن طبيعة الإنسان وفطرته، والواقع الاجتماعيّ وسننه، لتثبت أن الإنسان كلما تعلّق بالشكليّات والمظاهر واهتمّ بها، وحرص عليها، غفل عن الحقائق والواجبات المكلّف بها، وانتقص منها، وهي مناط سعادته وفلاحه، وسرّ فاعليّته في الحياة، ورقيّه وتقدّمه.

ثـمّ إن التعلّـق بالمظـاهر والشـكليات، وانتقـاص الحقـائق الجوهرية، سمة من سمات الريـاء الاجتمـاعي، والتصـنّع للنـاس، والبعد عن التعلّق بالله تعالى، والحرص على مرضاته واتّباع هـداه، ولا تبتلى الأمم بذلك إلا في مراحل انحطاطها وتخلّفها، أو ليكـون ذلك نذير انحطاطها وتخلّفها..

* التكريم الصادق والحبّ المقبول: " ومن هنا كان التكريم الحقّ للمصطفى، لا يتحقّق بهذه المظاهر كلها، وإنما التكريم الحق، والإجلال الصادق، أن نستمسك بالقرآن الكريم الذي أنزل عليه، ونستلهمه الخير والحكمة، ونستنطقه الحجة والبرهان، ونستنير بهديه وإرشاده، ونذعن إليه قاضياً ومعلماً، وأن نُحَكّمه في أنفسنا وأُسرنا، ومقوّماتنا الخاصة والعامة: نأتمر بأمره، وننتهي بنهيه، ولا نقصّر عنه ولا نجاوزه، نتدارسه صباح مساء، ونستكشف منه ما أودع من حِكَم وعلم، وما حواه من عظة وعبرة.

التكريم الحق أن نتبع سنّة هذا النّبي الكريم ﷺ، وندرس سيرته دراسة وعي وفهم، فنستلهم منها الهدى والرشاد، والعلم والفضل، والتضحية والثبات، ونطالع سيرة أصحابه الغرّ الميامين، وأخبارهم الممتعة، فنتعلّم كيف يكون الانقياد والاتّباع، وكيف يُتحمّل الأذى، ويستعذب العذاب، في تأييد

الشرع الحكيم، والمبدأ الحق، وكيف تبذل الأموال والأرواح في سبيل الله، وإعلاء دينه ونصرة رسوله ﷺ.

وفي سنته ﷺ وسيرة أصحابه، بيان ما نحتاج إليه في عباداتنا ومعاملاتنا، وجميع نواحي حياتنا...

وفيها بيان ما ينبغي أن يُرَبَّى عليه الفرد والأسرة، وما ينبغي أن تكون عليه الأمّة حكومة وشعباً...

وفيها ما يبدّد كل غموض، ويحلّ كل مشكلة، تعترضنا في هذه الحياة، وما ينير لنا الحق ويهدي سواء السبيل.

التكريم الصادق أن نتمسك بمبادئ دينه المشرقة، وأنظمته الخالدة، التي تنشئ الفرد قوياً متميّزاً بالخلق السامي، والعقل الراجح، والجهاد الدائم، والعقيدة الراسخة، لا يذوب في غيره، ولا تلوي به عواصف الأهواء والمغريات، ولا يتلوّن متأثّراً بالمطامع والحزبيات، ولا تزحزحه عن إسلامه نُعَرة ولا عصبية، ينصر الحقّ، لا تأخذه فيه لومة لائم، ويتفانى في تأييده ونصرته، ويموت في سبيل الدعوة إليه، وإحيائه وإعزازه.

التكريم الحق أن يفخر المسلم بتاريخه المجيد، وسلفه الصالح، ويرفع رأسه معتزاً بدين رفع الإنسانية من حضيض الجهل إلى أوج العلم، وهداها سبيل السعادة الحقّة في الدنيا والآخرة ".

ولحظة صدق يامن تدّعي الحبّ الصادق، وأنت غارق في بحار الهوى، تقول لك بكل صراحة ووضوح: إن هذه المظاهر ليست هي المحبّة الإيمانيّة الصادقة، والبرهان الذي يريده المحبوب على ما تدّعي، إنها اندفاعات عاطفيّة، لا خطام لها ولا زمام، ولا ضابط لها من شريعة أو التزام، ومنها وهو

أشنعها وأسوأها ما يكون مظهر رياء اجتماعيّ، وتزلّف إلى العامّة، واسترضاء للمشاعر في مناسبة موقّتة.

فابحث لك إن كنت من أهل الصدق على البراهين الصادقة، عند أولئك الذين شهد لهم الحقّ سبحانه: ﴿ **يحبّهم ويحبّونه** ﴾، الذين ﴿ **صدَقُوا مَا عاهَدُوا الله عليهِ، فمنهُم مَن قضَى نحبَه، ومنهُم مَن يَنتظِرُ، ومَا بدّلُوا تَبديلاً** ﴾ الأحزاب ٢٣.

فلا تغالط نفسك، ولا تظنّنّ الحبّ رسوماً ومظاهر، فما أبعدك إذن عن شمّ شيء من عرفه، أو ذوق شيء من طعمه..!

ويقف أمامنا سؤال ملحّ يجب على كلّ مؤمن أن يعرف إجابته، ليكون على بيّنة من أمره:

* كيف السبيل إلى الحبّ الصادق؟ وما الأسباب التي تصل المؤمن إليه.؟ إن السبيل إلى ذلك يتلخّص في كلمة واحدة عظيمة كبيرة، وهي قريبة ميسورة: إنها المعرفة، وقد جاء في صفة النبيّ ﷺ: " من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبّه.. " (١).

وقد نعى الله تعالى على المشركين كفرهم برسوله ﷺ، ومعاندتهم إياه، واحتجّ عليهم بحجّة بليغة دامغة، ألا وهي معرفتهم به صلوات الله وسلامه عليه، فهم يعرفون نشأته الطيّبة الطاهرة،

(١) . رواه الترمذي في المناقب عن علي رضي الله عنه /٣٥٧١/.

وسيرته العطرة، ويشهدون بصفاته الكريمة، وأخلاقه الزكيّة، فقال الله تعالى: ﴿ أم لم يعرِفُوا رسُولهم، فهُم لهُ مُنكِرُون.؟! ﴾ المؤمنون ٦٩.

* المحبّة الفطريّة وأسبابها : فطرة الحبّ نعمة إلهيّة مغبون فيها كثير من الناس، وأسبابها التي تجعل الإنسان، يميل بطبعه إلى الآخر، وينجذب إليه، لا تعدو ثلاثة أسباب: الجمال، والكمال، والإحسان، وهذه الأسباب كلّها تتمحور حول المعرفة، كما تعدّ المعرفة أصلاً كبيراً لها، وكل سبب من هذه الأسباب، يتنوّع إلى حسّي ظاهر، ومعنويّ باطن، ومنها ما ينال بكسب الإنسان وسعيه، ومنها ما لا ينال بذلك، وإنما هي مواهب ربّانيّة خاصّة، ومنح وخصوصيّات، يختصّ بها الله من يشاء من عباده: ﴿ **يختَصّ برحمتِهِ مَن يَشاءُ، واللّه ذُو الفضلِ العَظيمِ** (٧٤) ﴾ آل عمران.

وهذه الأسباب واسعة المعاني، شاملة جامعة، لا مجال لبسطها هنا وتفصيلها، وقد أملى علينا الشيخ أحمد رحمه الله تعالى، وأجزل مثوبته، خلاصة مفيدة عن هذه الأسباب للمحبّة، ومما جاء فيها:

" **أسباب المحبة ثلاثة؛ الكمال والجمال والإحسان، وهي على وجه الكمال المطلق لله سبحانه وتعالى، لأنه سبحانه خالق كل شيء ومليكه، المنعم بالنعم كلها ما ظهر منها وما بطن، المتصف**

بكل كمال، والمتنزه عن كل نقصان، ثم هذه الأسباب لم تجتمع لأحد من البشر على وجه الكمال الإنساني، إلا لرسول الله ﷺ، فمن هنا كانت محبته بعد محبة الله تعالى، وهي تبع لمحبته سبحانه، ثم لا ينبغي أن تكون المحبة لأحد من الخلق إلا على قدر اتصافه بالكمال الإسلامي في العقيدة والعبادة والعمل، والجمال في الأخلاق والسلوك والصفات، والإحسان إلى الخلق والبِّر بهم، والشفقة عليهم.

" وما سوى ذلك، فأسباب مادية، أو أهواء شيطانية، ومحبة شهوانية هابطة، تقود أصحابها إلى فساد الضمير والسلوك، وتكون عليهم وبالاً يوم القيامة.. ".

وهكذا فإن الحبّ في الله ولله، الذي نريده، وندعو إليه، ليس عواطف جامحة رعناء، ولا اندفاعات من الأهواء، وإنما هو روح علويّة شفّافة، ترفع نفس المؤمن وهمّته حتى تجعله في المقام الأسمى، وترفرف روحه مع الملأ الأعلى.

يقول الإمام ابن الجوزيّ رحمه الله تعالى: " إن المعاني المستحسنة تحبّ أكثر من الصور، ولهذا نحبّ أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً ﷺ لمعانيهم لا لصورهم ".

والمحسن يحبّ، ولو لم ننل شيئاً من إحسانه، لأن الإحسان يحبّ لذاته، فذلك من سلامة الفطرة في الإنسان وسويّتها.

وكل هذه الأسباب وأنواعها قد اجتمعت لرسول الله ﷺ بتمامها وكمالها، وأحسن استيفائها، فلا عجب أن وصفه الله

بالخلق العظيم، وبالمؤمنين رءوف رحيم، وأرسله رحمة للعالمين، وجعله أسوة حسنة، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وذكر الله كثيراً.

ولا يتحقّق المؤمن بذلك، ولا يتذوّقه إلاّ بدراسة السيرة النبويّة، دراسة المؤمن المحبّ، لا دراسة الباحث المؤرّخ، أو المطالع المستمتع.

قال في المواهب: ".. وإذا كان الإنسان يحبّ من منحه في دنياه، مرة أو مرتين، معروفاً فانياً منقطعاً، أو استنقذه من مهلكة أو مضرّة لا تدوم، فما بالك بمن منحه منحاً لا تبيد ولا تزول، ووقاه من العذاب الأليم مالا يفنى ولا يحول.؟!

وإذا كان المرء يحبّ غيره على مافيه من صورة جميلة، وسيرة حميدة، فكيف بهذا النبيّ الكريم، والرسول العظيم، الجامع لمحاسن الأخلاق والتكريم، المانح لنا جوامع المكارم والفضل العميم، فقد منحنا الله به منح الدنيا والآخرة، وأسبغ علينا نعمه باطنة وظاهرة، فاستحقّ أن يكون حظّه من محبّتنا له أوفى وأزكى من محبّتنا لأنفسنا وأولادنا وأهلينا وأموالنا، والناس أجمعين، بل لو كان في منبت كل شعرة منا محبّة تامّة له ﷺ، لكان ذلك بعض ما يستحقّه علينا.

ويقول القاضي عياض رحمه الله تعالى: " فما ظنّك بعظيم قدر من اجتمعت فيه كل هذه الخصال، إلى ما لا ينال بكسب ولا حيلة إلاّ بتخصيص الكريم المتعال من فضيلة النبوّة، والرسالة، والخلّة، والمحبّة، والاصطفاء، والإسراء، والرؤية،

والقرب، والوحي، والشفاعة والوسيلة والفضيلة، والدرجة الرفيعة، والمقام المحمود، والبراق والمعراج، والبعث إلى الأحمر والأسود، وإيتاء الكتاب والحكمة، والسبع المثاني والقرآن العظيم، وصلاة الله تعالى وملائكته، وتأييده بالمعجزات، وما خصّه الله تعالى به من منازل الكرامة ودرجات القدس، ومراتب السعادة التي تقف دونها العقول، وتحار دونها الفهوم.! ".

* نماذج من أقوال الصحابة في حبّهم للنبيّ ﷺ: ومن هنا فإذ كان أصحاب رسول الله ﷺ وﷺ أعظم الناس معرفة برسول الله ﷺ، ومعرفة بكماله وجماله وعظيم إحسانه على الأمّة، فقد كانوا ﷺ أكمل الناس محبّة لرسول الله ﷺ، وأعظم الناس اشتياقاً لرؤيته ومجالسته وسماع حديثه، وإيثار مرضاته، والتلذّذ بطاعته وخدمته، وفدائه ـ حقيقة لا كلاماً ودعوى ـ بآبائهم وأمّهاتهم، وقد أثر عنهم من ذلك المواقف الكثيرة المشرّفة، ممّا جعلهم خير القرون التي عرفتها البشريّة، وخير الناس بعد النبيّين والمرسلين.

ـ فمن أقوالهم ﷺ في حبّهم لرسول الله ﷺ:

ـ يقول عمرو بن العاص ﷺ: (.. وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلَالًا لَهُ وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ لأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ [١].

ويقول أبو هريرة ﷺ: (مَا رَأَيْتُ شَيْئاً أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي وَجْهِهِ، وَمَا رَأَيْتُ أَحَداً أَسْرَعَ فِي مِشْيَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، كَأَنَّمَا الأَرْضُ تُطْوَى لَهُ، إِنَّا لَنُجْهِدُ أَنْفُسَنَا وَإِنَّهُ لَغَيْرُ مُكْتَرِثٍ) [٢].

وعن جابر بن سمرة ﷺ قال: (رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي لَيْلَةٍ إِضْحِيَانٍ (أي ليلة اكتمال القمر) فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَإِلَى القَمَرِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ، فَإِذَا هُوَ عِنْدِي أَحْسَنُ مِنْ القَمَرِ) [٣].

* أسباب نيل محبّة الله تعالى، ومحبّة رسوله ﷺ: وبعدما ذكرنا الأسباب الفطريّة للمحبّة، التي جعل الله تعالى منها لرسوله الكريم ﷺ أتمّ حظّ وأوفى نصيب، لا بدّ لنا أن نعرض الأسباب التي يجب

---

(١) . رواه مسلم في كتاب الإيمان برقم /١٧٣/ في حديث طويل عنه.

(٢) . رواه الترمذي في كتاب المناقب عن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ برقم /٣٥٨١/، وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ.

(٣) . رواه الترمذي في كتاب الأدب عن رَسُولِ اللهِ ﷺ برقم /٢٧٣٥/، وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لا نَعْرِفُهُ إِلاّ مِنْ حَدِيثِ الأَشْعَثِ.

على العبد أن يتّخذها ليستجلب بها حب الله تعالى، وحبّ رسوله ﷺ، فيحيا بها قلبه وينتعش، وتزيد الحبّ فيه وتؤجّجه، يقول الإمام الغزاليّ رحمه الله: " أمّا بعد؛ فإنّ المحبّة لله هي الغاية القصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبّة مقام إلاّ وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها؛ كالشوق والأنس والرضا وأخواتها، ولا قبل المحبّة مقام إلاّ وهو مقدّمة من مقدّماتها؛ كالتوبة والصبر والزهد وغيرها.. وسائر المقامات إن عزّ وجودها، فلم تخل القلوب عن الإيمان بإمكانها، وأمّا محبّة الله تعالى فقد عزّ الإيمان بها حتّى أنكر بعض العلماء إمكانها، وقال: لا معنى لها إلاّ المواظبة على طاعة الله تعالى، وأمّا حقيقة المحبّة فمحال إلاّ مع الجنس والمثال.. ولما أنكروا المحبّة أنكروا الأنس والشوق، ولذّة المناجاة وسائر لوازم الحبّ وتوابعه، ولابدّ من كشف الغطاء عن هذا الأمر.. " [1].

وقد أرجع الإمام الغزاليّ أسباب الحبّ إلى خمسة أسباب:

١ ـ حبّ الإنسان وجود نفسه، وكماله وبقاءه.

٢ ـ وحبّه من أحسن إليه فيما يرجع إلى دوام وجوده، ويعين على بقائه، ودفع المهلكات عنه.

٣ ـ وحبّه من كان محسناً في نفسه إلى الناس، وإن لم يكن محسناً إليه.

٤ ـ وحبّه لكلّ ما هو جميل في ذاته، سواء حبّه أكان من الصور الظاهرة أو الباطنة.

([1]) . إحياء علوم الدين ٤/٢٩٤/.

٥ . وحبّه لمن بينه وبينه مناسبة خفيّة في الباطن.

فلو اجتمعت هذه الأسباب في شخص واحد تضاعف الحبّ لا محالة، كما لو كان للإنسان ولد جميل الصورة، حسن الخلق، كامل العلم، حسن التدبير، محسن إلى الخلق، ومحسن إلى الوالد، كان محبوباً لا محالة غاية الحبّ، وتكون قوّة الحبّ بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوّة هذه الخلال في نفسها، فإن كانت هذه الصفات في أقصى درجات الكمال كان الحبّ لا محالة في أعلى الدرجات.. وهذه الأسباب كلّها لا يتصوّر كمالها واجتماعها إلاّ في حقّ الله تعالى، فلا يستحقّ المحبّة بالحقيقة إلاّ الله سبحانه وتعالى " [١].

ويعدّد الإمام ابن القيّم رحمه الله أسباباً كثيرة **لتنمية** محبّة الله ورسوله في قلب المؤمن وزيادتها، وأهمّها أحد عشر سبباً [٢]:

. أحدها: تلاوة القرآن مع التدبر لمعانيه، والتفهم لما أريد به من سلوك وعمل.

. ثانيها: التقرب إلى الله بالنوافل من الطاعات والقربات بعد أداء الفرائض، واجتناب المحرّمات، فإنها توصل المؤمن إلى درجة المحبوبية بعدما تقدّم من برهان المحبة، وترفع العبد في مقامات القرب والحبّ، وفي الحديث القدسيّ المشهور عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ

---

(١) . إحياء علوم الدين ٤/٣٠٠.

(٢) . ذكرها الإمام ابن القيّم رحمه الله في بعض كتبه، نذكرها هنا بتصرّف وبيان.

الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المؤْمِنِ، يَكْرَهُ المؤْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ) (١).

وقد تضافرت عشرات الأدلة والنصوص من الكتاب والسنّة، التي تبيّن أثر العمل الصالح في زيادة الحبّ لله ورسوله ﷺ، وأثر الحبّ في زيادة القرب، وأثر القرب في زيادة الحبّ وتأجّجه فالعلاقة بين الحبّ لله ورسوله ﷺ وبين العمل الصالح علاقة تأثير متبادل، لا ينفكّ أحدهما عن التأثير في الآخر وزيادته.

وإنّ من شأن المؤمن أن يضرب من كلّ غنيمة من العمل الصالح بسهم، وأن يكون له في كلّ ميدان من الخير نصيب، فلا يقتصر على نوافل الصلاة، أو الصوم، أو الصدقة، أو الحجّ، أو الذكر لله تعالى، وإنما يجتهد أن ينافس المجتهدين في كلّ باب وأن يقدّم محابّ الله تعالى، وما يكون أنفع لعباده على رغائبه ومحابّه.

. الثالث: دوام ذكر الله تعالى على كل حال: باللسان والقلب، والعمل والحال. فنصيب المؤمن من محبة الله تعالى على قدر نصيبه من هذا الذكر، وكذلك كثرة الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، فمن أحبّ شيئاً أكثر من ذكره.

. الرابع: إيثار محابّ الله تعالى على محابك عند غلبات الهوى، والتسنّم إلى محابّه، وإن صعُب المرتقى.

---

(١) . رواه البخاري في كتاب الرقاق برقم /٦٠٢١/.

. **الخامس**: مطالعة القلب لأسماء الله تعالى وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، وتقلّبه في رياض هذه المعرفة وحقائقها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله: **أحبّه لا محالة**.

. **السادس**: مشاهدة برّ الله تعالى وإحسانه، وسابغ آلائه ونعمائه، وعظيم مننه الباطنة والظاهرة، فإنها داعية إلى محبّته، وكثرة ذكره وشكره.

. **السابع**: وهو من أعظمها وأعجبها، انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى، والذلّة لعظمته وربوبيّته، وعلى قدر تحقّق العبد بالعبوديّة لله تعالى يتحقّق بالذلّة والانكسار بين يدي الله تعالى، ويستشعر الافتقار إليه سبحانه، وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

. **الثامن**: الخلوة بالله تعالى وقت النزول الإلهي، لمناجاته وتلاوة كلامه، ووقوف القلب ببابه، والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختْم ذلك بالاستغفار والتوبة.

. **التاسع**: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب كلامهم، ثمرات أفكارهم وأحوالهم، كما تَنتقي أطايب الثمر، ولا تتكلم بين أيديهم إلا إذا ترجّحت مصلحة الكلام، وعلمتَ أن فيه مزيداً لحالك، ومنفعة لغيرك، وكذلك دراسة سير السلف الصالح وفهم وأخبارهم، وتذوّق مشاعرهم، وما فاضت به أرواحهم من معاني وحقائق وآداب، مما لا يخرج عن مشكاة الكتاب والسنّة وهديهما، وقد حفظت لنا بحمد الله تعالى كتب السير والتراجم من ذلك الشيء الكثير.

. **العاشر**: تخفيف العلائق، وقطع العوائق، ومباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عزّ وجلّ، فما أكثر ما شغلت علائق الدنيا الإنسان، ووقفت في وجهه العوائق، فصدّته عمّا فيه خيره، وحجبته عن صلاح أمره.!

والعاقل الموفّق من حزم أمره، وأحكم سيره، ولم يغترّ بزخرف فانٍ، يشغله ويصدّه عن سعادة الأبد، ورضوان لا يفنى.

. الحادي عشر: التفكّر في فضائل النبيّ ﷺ ومكارمه، وما خصّه الله به من خصائص وفضائل، ورحمة الله تعالى للإنسانيّة، بل للعالمين به، وما لقيه ﷺ في سبيل دين الله تعالى من عنت وإيذاء، وتكذيب واستهزاء، وكمال رأفته ﷺ وشفقته بأمته، وحرصه على نيلها لكلّ خير، وإبعادها عن كلّ شرّ.

يقول الإمام ابن القيّم رحمه الله: " **ومن هذه الأسباب: وصل المحبون إلى منازل المحبة، ونالوا القرب، ودخلوا على الحبيب.. ومِلاك ذلك كلّه أمران: استعداد الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة. وبالله التوفيق** ".

فامتحن نفسك أخي المؤمن عند كلّ سبب من هذه الأسباب، فإن رأيت منها مسارعة في مرضاة ربّك، وما يحبّه الله سبحانه، وفي طاعة رسوله ﷺ، والحرص على اتّباع سنّته وهديه، فاحمد الله تعالى أن لديك براهين صدقك في محبّتك، وإيثارك لمرضاة ربّك على شهوات نفسك.. وإن وجدت غير ذلك فالسبيل أمامك مرسوم، والطريق آهل بالمحبّين السالكين، وساعات السبق بالرهان محدودة بأنفاس هذه الحياة، فلا تكن من القاعدين المفرّطين المحرومين.؟! والسعيد من وفّقه الله تعالى وهداه.

* محبّة الله تعالى لعبده، ومحبة العبد لربه : واعلم أخي المؤمن أن جميع الأدلة . عقلاً ونقلاً وفطرة، وقياساً واعتباراً، وذوقاً ووجداً . تدل على إثبات محبة العبد لربه، ومحبة الله تعالى لعبده.

* والذي أجمع عليه العارفون في قوله تعالى: ﴿ **يحبّهُم ويحبُّونَه** ﴾ على إثبات محبة العبد لربه سبحانه، وإثبات محبة الرب لعبده، وأن محبة العبد لربّه فوق كل محبة تقدّر، ولا نسبة لسائر المحابّ إليها، وهي حقيقة كلمة التوحيد: " **لا إله إلا الله** " وروحها، وأنها صفة زائدة على الطاعة والاستقامة والعمل الصالح.

وكذلك محبة الربّ لأوليائه ورسله، وللمؤمنين من عباده: صفة زائدة على رحمته، وإحسانه وعطائه، فإنّ ذلك أثر المحبة وموجبها، فإنه لما أحبهم كان نصيبهم من رحمته وإحسانه وبره أتمَّ نصيب.

ولعل أرفع ما جاء في محبّة الله تعالى لعباده ما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا أَحَبَّ اللهُ العَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلاناً فَأَحْبِبْهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلاناً فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْداً دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلاناً فَأَبْغِضْهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلاناً فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ البَغْضَاءُ فِي الأَرْضِ) [1].

---

(١) . رواه البخاريّ في كتاب بدء الخلق برقم /٢٩٧٠/ ومسلم في كتاب البرّ والصلة والآداب برقم /٤٧٧٢/.

ألا ما أعظم آثار هذه المحبّة، وما أرفع حظّ العبد منها، ولو لم يكن فيها غير هذه الآية الكريمة، وهذا الحديث الشريف لكفى بأصحابها شرفاً وعزّاً، ومنزلة ورفعة.!

وإن العقول لتحكم بوجوب تقديم محبة الله تعالى على محبة النفس والأهل، والمال والولد، وكلِّ ما سوى ذلك.

وكلُّ من لم يحكم عقله بهذا: فهو مطموس البصيرة، فلا تعبأ بعقله، فإن العقل والفطرة، والشرع والنظر، كلّها تدعو إلى محبته سبحانه، بل إلى توحيده في المحبّة، وإنما جاءت الرسل بتقرير ما في الفطر السليمة، والعقول الرصينة.

* كيف تنبت المحبّة. ؟ وكيف تثبت. ؟ يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: " **وأول ما تنبت المحبة في القلب من مطالعة المنة، وتثبت باتباع السنة.**

أي أنها تنشأ من مطالعة العبد مِنّة الله عليه، ونعمه الباطنة والظاهرة، فبقدر مطالعته ذلك تكون قوة المحبة، فإن القلوب مجبولة على حبّ من أحسن إليها، وبُغض من أساء إليها، وليس للعبد قط إحسان إلاّ من الله، ولا إساءة إلا من الشيطان.

* ومن أعظم منة الله تعالى على عبده : تأهيله لمحبته ومعرفته، وإرادة وجهه، والحرص على متابعة حبيبه ﷺ.

وأصل هذا: نور يقذفه الله في قلب العبد، فإذا تغلغل ذلك النور في قلب العبد: أشرقت ذاته، فرأى فيه نفسه، وما أُهّلت له من الكمالات والمحاسن، فَعَلَتْ به همّته، وقويت عزيمته،

وانقشعت عنه ظلمات نفسه وطبعه، لأن النور والظلمة لا يجتمعان إلا ويطرد أحدهما الآخر، فتاقت الروح حينئذ إلى الحبيب الأول:

نَقِّل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحبّ إلاّ للحبيبِ الأوّلِ
كم منزلٍ في الأرضِ يألفُه الفتى وحنينُه أبداً لأوّل منزل.!

وهذا النور كالشمس في قلوب المقرّبين السابقين، وكالبدر في قلوب الأبرار أصحاب اليمين، وكالنجم في قلوب عامّة المؤمنين. وتفاوتهم فيه كتفاوت ما بين الزهرة والسُهَى.

ورسوخ هذه المحبة وثباتها في القلب، إنما يكون بمتابعة الرسول ﷺ في أعماله وأقواله، وأخلاقه وأحواله، فبحسب هذا الاتباع يكون منشأ هذه المحبة وثباتها وقوتها، وبحسب نقصانه يكون نقصانها وهذا الاتباع يوجب المحبة والمحبوبية معاً، ولا يتم الأمر إلا بهما.

واعلم أخي المؤمن أنك لا يحبك الله إلا إذا اتبعت حبيبه ﷺ ظاهراً وباطناً، وصدّقته خَبَراً، وأطعته أمراً، وأجبته دعوة، وآثرته طوعاً، وفنيت عن حكم غيره بحكمه، وعن محبّة غيره من الخلق بمحبته، وعن طاعته غيره بطاعته، وإن لم يكن ذلك فلا تتعنّ، وارجع من حيث جئت، فالتمس لنفسك نوراً، ولا تغترّ بنفسك وما أنت عليه، فلست على شيء في هذا السبيل.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ **فاتّبِعُونِي يحببكُمُ اللّه، ويغفِر لكُم ذُنُوبَكُم** ﴾ آل عمران ٣١ أي الشأن في أن الله يحبّكم، لا في أنكم تدّعون حبّه، وهذا لا تنالونه إلا باتباع الحبيب المصطفى ﷺ.

وتتصاعد المحبة حتى تبعث على إيثار الحق على غيره، وتُلهِج اللسان بذكره، فهي لكمالها وقوتها، تقتضي من المحب أن يترك لأجل الحق ما سواه، فيؤثره على غيره، ولا يؤثر غيره عليه، ويجعل اللسان لَهِجاً بذكره، فإن من أحبّ شيئاً أكثر من ذكره حتى كأنّه لا يشاهد غيره ولا يراه.

ـ **وإنما تنال هذه المحبّة** من مطالعة صفات الله تعالى: بإثباتها أولاً، ومعرفة معانيها بنفي التحريف والتعطيل، والتمثيل والتكييف عن معانيها ونصوصها ثانياً، والتذوّق لمعانيها بالتفكر في بديع الصنع، وجليل الحكمة، وعظيم اللطف والرحمة ثالثاً، فلا يصحّ للعبد مطالعة الصفات الباعثة على المحبة الصحيحة إلا بهذه الأمور الثلاثة، وكلما أكثر قلبه من مطالعتها، ومعرفة معانيها والتذوّق لآثارها: ازدادت محبته للموصوف بها، وعظمت هيبته في قلبه وإجلاله.

وتزداد المحبّة تصاعداً بالنظر إلى الآيات نظر التفكّر والاعتبار: آيات الله المشهودة، وآياته المسموعة، وكلٌّ منهما داعٍ قويٌّ إلى محبّته سبحانه، لأنّها أدلّة على صفات كماله، ونعوت جلاله، وودلائل على توحيد ربوبيته وإلهيته، وبراهين على حكمته وعلمه، وإحسانه وعفوه، وجوده وحلمه.

* العلاقة بين الحقّ والصدق والحبّ : والحديث عن الحبّ، يحدونا إلى الحديث عن العلاقة بينه وبين كلمتين حبيبتين إلى قلب كلّ مؤمن، عزيزتين على نفسه، هما على درجة كبيرة من العلاقة به والاتّصال؛ إنهما الحقّ والصدق، حتّى لكأنّ الحديث عن

إحداهما إن لم يكن حديثاً عن الأخرى، فهو تذكير به، أو هو به أشبه.

الحقّ الذي قامت به السموات والأرض، والصدق الذي هو صنو الحقّ ونوره، وبرهانه وسرّه، باطنه الإخلاص وصفاؤه، وظاهره عزّة الإرادة، سموّ الغاية.

وإن بين الحقّ والصدق والحبّ رابطة وشيجة، وعلاقة وثيقة، تجعل من حقائق هذه الكلمات الثلاث وروابطها أسّاً تقوم عليه كل الفضائل الإنسانية، والكمالات الإيمانيّة؛

فالصدق مرآة شخصيّة الإنسان، تنعكس عليها صفاته وأخلاقه، ومنهجه ومواقفه، لأن الصدق يعطي صاحبه الإقبال العازم، والهمة الطموح، والجرأة والصراحة، وألا يحابي المؤمن في الحق أحداً، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

والصدق مفتاح النبوة، أليس الصدق أهمّ صفات الرسل، وأجلّ ما تمتّعوا به..؟

ثم أليس النبي ﷺ قد جعل صدقه مدخلاً لقريش إلى الإيمان بنبوّته من أول يوم.؟

فعلى قدر صدق المؤمن يقترب من مقام النبوة وأخلاق النبي ﷺ، وعلى قدر بعده عن الصدق يبتعد: ﴿ **والذي جاءَ بالصدْقِ، وصدّق بهِ أولئك هُمُ المتّقون** ﴾ [الزمر ٣٣].

ثم إن للصدق جذراً مكيناً في فطرة الأخيار المتقين ونفوسهم، يتّصل به جذع متين، صورته وجسده الحقّ، وروحه

وحياته الحبّ، ولذلك الجذع علائق متميّزة مع كل شيء في هذا الوجود؛

ـ فالصدق مع الله تعالى يهدي، وهو سرّ من أسرار القدر في الهداية والتوفيق.

ـ والصدق مع الحقّ، يقود إلى حبّه، والبحث عنه، وإيثاره، والرجوع إليه، والجرأة فيه والقوة، والتضحية لأجله، وصاحبه لا يداهن، ولا يماري، ولا يواري.

ـ والصدق مع النفس، يكشف عيوبها، ويعرف بحقيقتها، ويلزمها حدّها، ويحمل على تزكيتها.

ـ والصدق مع الناس؛ يحدد أبعاد العلاقة بهم، ويحمل على إخلاص النصح لهم، ويمنع من مجاراتهم في أهوائهم وباطلهم.

ومن هنا كان الصدق يهدي إلى كلّ خير وبرّ، كما جاء في الحديث الصحيح عَنْ عَبْدِاللهِ بن مسعود ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **(إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا)** [1].

إنّ كلمة الصدق نصرة للحقّ، وإعلاء لشأنه، وإنّ كلمة الكذب سعي في نقض الحق، وتوهين أمره، فإذا لم تكن ناصراً

---

(١) . رواه البخاريّ في كتاب الأدب برقم /٥٦٢٩/ ومسلم في كتاب البرّ والصلة والآداب برقم /٤٧١٩/.

للحق، مدافعاً عنه، فلا أقلّ من ألاّ تكون ساعياً في توهينه، وإضعاف صفّه.

وإن لحظة الصدق الواحدة، ذات وزن كبير، وأثر جليل، فما يقطعه المؤمن في لحظة الصدق أبعد مما يقطعه راكب الطيارة من الماشي على قدميه في أرض وَعْرة حَزْنة، وأشبه ما يكون في عصرنا بالحركة الألكترونية بالقياس إلى الحركة اليدوية البدائية، التي تحتاج إلى جهد ووقت، وهي محدودة المجال والأثر.

وصدق المؤمن في سيره إلى الله تبارك وتعالى إنما هو زاده ورصيده على مرور الأنفاس، وعدد اللحظات.

ـ **وأما الحقّ؛** فمنطلقه ومستقره العقل الحصيف، والفكر الحرّ المتجرد عن العصبيّة أو الهوى، وهو الثمرة الطيّبة للصدق، وله بالحبّ أوثق ارتباط واتّصال؛ ألم يقل الحقّ جلّ جلاله عن الكافرين الجانحين عن الإيمان بالحقّ وإيثاره في حياتهم: ﴿ **وأكثرُهُم للحقّ كارهُون** ﴾ الزخرف ٧٨ ، فكان مقتضى كلامه سبحانه أن يتّصل الحقّ بالحبّ، ولا ينفكّ عنه.

ـ **وأما الحبّ،** فلا نقصد به العاطفة الهوجاء المنفلتة، واندفاعات الأهواء الجامحة، بل نريد به التوجّه الصادق إلى الحقّ، والتوجيه السامي لتلك العاطفة الفطرية، وتهذيبها، والتسامي بها على هدى الحقّ الذي يحدد لها سبيلها، ويرسم لها مسارها، ويوضّح لها أبعادها، فلا تشتطّ ولا تميل، ولا تغلو ولا تقصّر.

وهي بدورها تنهض بالحق، وتسمو به عن أن يكون فكرة ذهنية باهتة، أو فلسفة مجردة، إنها تتفاعل بالصدق مع الحق، ويتحرك بها، ليكون منهما واقع يترجم الحق ويترسم خطاه.

وما أجمل هذا التصوير الدقيق للتنافر الذي يكشف عنه القرآن الكريم بين الحقّ الذي قامت به السموات والأرض، وبين اتّباع الهوى، الذي يجنح إليه الغارقون في ظلمات شهواتهم، الذين يريدون للكون أن يحكم بأهوائهم؛ إذ يقول الحقّ سبحانه: ﴿ **ولَوِ اتّبعَ الحقّ أهواءَهُم لَفسَدَتِ السَّمَوَاتُ والأرضُ ومَن فِيهِنّ..** ﴾ المؤمنون ٧١.

ثمّ إن الحبّ يغذيه الصدق ويمدّه وينمّيه، ليكون أزكى ما يرفع الإنسان، ويسمو به على المشاعر الهابطة، والنزوات المتدنية.

إنّه يتحدد سموّه من أول الطريق عندما يبتدىء بحبّ الله تعالى، وحبّ رسوله ﷺ، ولا يكتفي بدعوى الحبّ، بل لابدّ من صدق تلك الدعوى، وتقديم برهانها من الطاعة والاتباع، ليتحقّق المؤمن بكمال الإيمان، وليتذوّق حلاوته، كما سبق في الحديث الشريف: (**أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلاّ للهِ..**).

إن الحبّ لله ورسوله ﷺ، وكمال هذا الحبّ، هو مبدأ النظرة إلى كلّ شيء في هذا الوجود، ومبدأ العلاقة مع كل شيء، فكل حبٍّ بعده يجب أن يكون تابعاً له مستوحى منه.

فعلاقة الإنسان بالإنسان: زوجاً كان أو ولداً، أو قريباً أو صاحباً، وعلاقة الإنسان بماله ومسكنه، ومتاعه وتجارته، ودنياه

كلها، ونظرة الإنسان إلى الأفكار والقيم والمشاعر، والعادات والتقاليد، كل ذلك، وغير ذلك يجب أن يكون تابعاً لحبّ الله تعالى ورسوله ﷺ، ومستوحى من شرعه وهديه.

ومن هنا كانت: (أوثق عرا الإيمان، الحبّ في الله، والبغض في الله)، كما جاء في الحديث الشريف الصريح (١).

ويحزّ في النفس أن نقول: إن هذه المفاهيم أصبحت غريبة على تفكير كثير من شباب الدعوة، وتصوراتهم واهتماماتهم، لأنهم يدورون في فلك ثقافة العقل، والحرص على تغذية الفكر، وربما كان همّ أحدهم في نصرة دين الله تعالى أن يقتطع ساعات طويلة من حياته ومجالسه بالجدل والمراء، والاشتغال بالتخطيط النظريّ، والتنظير الفلسفيّ، والقلوب خواء، والأرواح جدباء، ولكنّ هذه المفاهيم في الحقيقة معادلات إيمانية أصيلة دقيقة، وأحسب أنها أبجديات في الدعوة والعمل، يهتدي إليها الربانيون في كل عصر وجيل، ويتعاملون بها، ويربون الناس على هديها، فيكونون على قدم النبوة في التربية والبناء، والتكوين المتّزن السليم.

إنّ الصدق والحقّ والحبّ أصول لابدّ منها في حياة كل مؤمن، فلا يستقيم بناء الشخصية الإسلامية بدونها، كما لا تقوم الجماعة المسلمة، وتتوثق روابطها، وتتصل وشائجها بغير وجودها بصورة متعادلة دقيقة.

---

(١) . رواه أحمد من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

ـ فإذا انتقص الصدق، أصبح الحق ضعيفاً باهتاً، واتجة الحبّ نحو الأهواء والشهوات، وأنواع من الضلالات.

ـ وإذا ضعف الحق، قدح ذلك في الصدق، وكان من ورائه الابتداع والضلال، واتّجه الحب وجهات غير مضبوطة بالحق وهديه، فكان أهواء لا يقرها الشرع، ولا يرضى بها، وقد يحسب صاحبها أنه على خير، لجموح عاطفته، وعرام رغبته.

ـ وإذا ضعفت جذوة الحب، أصبح حامل الحق قاسياً جافياً، ينفِّر الناس ولا يؤلفهم، ويفرق صفوفهم ولا يجمعهم، فإذا رأى منهم الجفوة عن دعوته والنفور عاد باللائمة على الناس، وربما ظنّ وادّعى أن ذلك بسبب النفوس التي أكثرها لا تقبل الحق ولا تألفه، ولم يعد على نفسه بالملامة، والحرص على اكتشاف أسباب التقصير، ولم يعلم أن اختلال مقادير هذه المفاهيم ونسبها الدقيقة، وعدم اتّزان شخصيته، وضعف تكوينه الفكري والتربويّ، هي الأسباب في نفرة الناس منه، وصدّهم عنه.

ـ وإنّ حملك للحق أخي المؤمن بقوة الصدق لا تغنيك عن جذوة الحب وصفاء العاطفة، وروح الرحمة.

كما أن جهلك بالحقّ، لا تعذرك به قوّة الصدق التي تحملها بين جوانحك، ولا جذوة الحبّ الفيّاضة المتّقدة، فتحقّق أخي المؤمن ! بتلك المعادلة الدقيقة المتوازنة، التي لا يفقهها إلا خيار الناس، لتكون عند الله من كمّل الرجال.

* مواقف الحبّ، وثمرات المعرفة والقرب : وبعد ما تحدّثنا عن السبيل إلى الحبّ الصادق، وذكرنا أسبابه التي لا بدّ منها ليتحقّق في نفس المؤمن ويتمكّن، يحسن بنا أن نعرض بعض ثمرات هذا الحبّ، وآثاره في الفرد والجماعة، وما تحقّق في حياة الناس من عجائب الانقياد والطاعة، وخير ما يلتمس ذلك في سيرة الصحابة ﷺ مع النبيّ ﷺ، الذي خصّه الله بأعظم الخصائص، وحباه أكرم الفضائل، وجمع له أسمى صفات الجمال والكمال، وأبلغ معاني الحسن والإحسان، وأرسله رحمة للعالمين، وجعله رءوفاً رحيماً بالمؤمنين، " فمن رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبّه "، يحسب كل جليس من جلسائه، أنه أحبّ الناس إليه، وأكرمهم عنده منزلة، لما يرى من حسن إقباله عليه، واهتمامه بملاطفته وحديثه، يقول واصفه عليّ ﷺ: " لم أر قبله ولا بعده مثله ".

* فمن أعظم ثمرات الحبّ الصادق :

١ ـ الطاعة والاتّباع، ودقّة التنفيذ والالتزام بأمر الله تعالى، وأمر رسوله ﷺ، هذا الالتزام والطاعة التي لا يعرفها الناس في حياتهم إلاّ في الأنظمة العسكريّة، ولكن التنفيذ فيها لايكون إلاّ بقوّة النظام وشدّته، وهيمنة العقوبات الرادعة، لمن يشذّ أو يخالف، أمّا دقّة التنفيذ والالتزام في علاقة المؤمن بدين الله وسنّة

نبيّه ﷺ، فإن باعثها الحبّ لله ورسوله ﷺ، والحرص على مرضاة الله ومثوبته.

٢ ـ الخروج عن أهواء النفس وحظوظها وشهواتها، وأن يكون هوى المؤمن تبعاً لشرع الله تعالى وهدي نبيّه ﷺ، كما جاء في الحديث: (لا يُؤمِنُ أحدُكُم حتّى يَكونَ هَواه تَبعاً لما جِئتُ بهِ) (١).

٣ ـ فداء رسول الله ﷺ بالنفس وتعريضها للأخطار دونه ﷺ، ويبلغ المؤمن ذلك بالنيّة المخلصة، والعزيمة الصادقة، ولو لم يعش مع النبيّ ﷺ، ولم يكن في عصره.

* نماذج فذّة، ومواقف نادرة :

وقد كان الصحابة ﷺ، وسلف هذه الأمّة الصالح، يستشعرون حبّهم لرسول الله ﷺ في كلّ موقف، ويرونه أعظم القربات إلى الله تعالى، وأجلّ حقائق الإيمان، التي ينبغي للمؤمن أن يتحقّق بها، لقد اندفع إليه أصحابه بالحبّ الصادق، والطاعة والاتّباع ودقّة التنفيذ والالتزام، والخروج عن أهواء النفس وحظوظها وشهواتها، وفداء رسول الله ﷺ، بالنفس وتعريضها للأخطار دونه، لقد اندفعوا في ذلك كله كما يندفع الماء إلى الحدور، وانجذبت إليه النفوس والقلوب كما ينجذب الفراش إلى النور،

---

(١) . رواه الإمام النوويّ رحمه الله في الأربعين، وقال: حديث حسن صحيح، رويناه في كتاب الحجّة بإسناد صحيح، وتعقّبه ابن رجب فضعّفه من وجوه، انظر جامع العلوم والحكم /٣٩٣/.

كأنما كان من القلوب والأرواح على ميعاد، وأحبّه أصحابه ورجال أمته وأطاعوه، وفدوه بأرواحهم ومهجهم، حباً وطاعة وفداء لم يسمع بمثل ذلك في تاريخ الأمم مع أنبيائها، أو مصلحيها وقادتها، ووقع في ذلك من خوارق الحبّ والتفاني في طاعته، وإيثاره على النفس والأهل والمال والولد مالم يحدث قبله، ولن يحدث بعده مثله؛

* دقّة الطاعة والجنديّة الصادقة :

فمن ذلك أن النبيّ ﷺ أعطى الراية يوم خيبر عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وقال له: (امشِ، ولا تلتفِت، حتّى يفتحَ الله عليكَ)، فسار عليّ رضي الله عنه شيئاً ثمّ وقف، ولم يلتفت، ونادى: " يارسول الله.! على ماذا أقاتل الناس.؟ فلم ينس رضي الله عنه قول النبيّ ﷺ: (امش ولا تلتفت..) واحتاج إلى سؤال النبيّ ﷺ عن شأن هامّ من شئون القتال فوقف وسأل، ولم يلتفت.

* وللنساء نصيب كبير من الحبّ والفداء :

" ولما كان يوم أحد، أقبلت امرأة تسعى، حتى كادت أن تشرف على القتلى، فكره النبيّ ﷺ أن تراهم، فقال: المرأة.! المرأة.!

قال الزبير بن العوّام رضي الله عنه: فتوسّمت أنها أمي ـ وهي صفيّة بنت عبد المطّلب رضي الله عنها، بلغها أن المشركين قتلوا أخاها حمزة رضي الله عنه، ومثّلوا به، فهي تريد أن تراه.

قال: فخرجت أسعى إليها، فأدركتها قبل أن تنتهي إلى القتلى، فلدمت في صدري، ـ أي دفعته دفعاً شديداً ـ وكانت امرأة جَلدة ـ أي شديدة ـ وقالت: إليك عني لا أرض لك.

فقلت لها: إن رسول الله ﷺ عزم عليك ألاّ تذهبي، فوقفت ولم تتحرّك من مكانها.

نعم.! وقفت، ولم تتحرّك من مكانها، لأنها تلقّت أمر رسول الله ﷺ، فسمعاً وطاعة.! إنها الجنديّة المثلى، تتجلّى في أشدّ ساعات الهول، ونزول المصيبة.!

ـ وروى ابن إسحاق في السيرة أن امرأة من الأنصار رضي الله عنها، قُتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله ﷺ، فلما أخبرت قالت: ما فعل رسول الله ﷺ.؟ قالوا: خيراً، هو بحمد الله تعالى كما تحبّين، فقالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فلما رأته قالت: " **كل مصيبة بعدك جلل** " أي: صغيرة.

* عندما يشتدّ البأس تظهر حقائق الحبّ المكنون :

فمن ذلك قصّة أبي دجانة رضي الله عنه يوم أحد: إذ ترّس بنفسه دون رسول الله ﷺ مع ثلّة كريمة من أصحاب المصطفى ﷺ.

وكان مثل ذلك من نسيبة بنت كعب رضي الله عنها.

* وأي برهان أعظم من التضحية والفداء . ؟ !

ومن ذلك موقف زيد بن حارثة رضي الله عنه، مولى رسول الله ﷺ، يوم الطائف، إذ كان يتلقّى دون المصطفى الحجارة التي يرمى بها من سفهاء ثقيف وغلمانهم، وفي ذلك يقول بعض المادحين:

كان يلقى عنه الحجارة زيد إن روحي لنعل زيد فداءُ

وقد بادله رسول الله ﷺ هذا الحبّ العجيب بالحبّ والإيثار، ومن هنا فكان يسمّى حبّ رسول الله ﷺ، وكان ابنه أسامة رضي الله عنه يسمّى حبّ رسول الله ﷺ وابن حبّه.

* شهادة من أبي سفيان تكشف عن خطر الحبّ : لما أخرج المشركون زيد بن الدثنة رضي الله عنه، من الحرم ليقتلوه، قال له أبو سفيان بن حرب، وكان على الشرك: أنشدك الله يازيد.! أتحبّ أن محمّداً الآن عندنا نضرب عنقه، وأنك في أهلك.؟ فقال زيد: " والله ماأحبّ أن محمّداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة، وأني جالس في أهلي "، فقال أبو سفيان: " ما رأيت أحداً من الناس يحبّ أحداً كحبّ أصحاب محمّد محمّداً ".

* ويوم الحديبية قدّم الصحب أكبر شهادة: فقد قال عروة بن مسعود الثقفيّ لأصحابه من المشركين، بعدما رجع من مفاوضة النبيّ ﷺ، عند الحديبية: " **أي قوم ! والله لقد وفدت على الملوك، على كسرى وقيصر والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحابُ محمّدٍ محمّداً، والله إن تنخّم نخامة إلاّ وقعت في كفّ رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضّأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر تعظيماً له** ".

لقد أحاط النبيّ ﷺ أصحابُه بالحبّ والتبجيل، ودقّة الأدب التي لم يكن للعرب بها أيّ عهد أو علم أو معرفة مع أيّ عظيم من عظمائهم، أو كبير من كبرائهم، ولم يكن ذلك عن تصنّع

غير صادق، أو تظاهرٍ منافقٍ، وإنما عن حقيقةٍ من الحبّ والصدق، والبرّ والوفاء، بهرت ألباب الآخرين، وشدهت أنظارهم، فشهدوا تلك الشهادات بكلّ إكبار وتقدير، وانطلقت من ألسنتهم تلك الكلمات، التي انتزعتها منهم شدّة الإعجاب بما رأوا وعاينوا..

ولم لا يكونون كذلك.؟! ألم يبشّر الله بنصّ كتابه: ﴿ **الذين آمنُوا بهِ، وعَزّرُوه، ونَصَرُوهُ، واتّبعُوا النُّورَ الذي أُنزِلَ معَهَ، أُولئكَ هُمُ المفلِحُون** ﴾ [الأعراف ١٥٧].

فكانوا المفلحين حقّاً، وكانوا خير القرون عدلاً وصدقاً..

وإن هذه المواقف من الحبّ الصادق، والفداء النادر لتذكّرنا بصورة من الحبّ التي حباها الله نبيّه ﷺ، وهو لم يزل بعد في طفولته الأولى، سواء عند حليمة السعديّة، أو بين أترابه، أو بعد أن أكرمه الله بالوحي والنبوّة، فعاداه الطغاة المتجبّرون، وحدب عليه عمّه أبو طالب، ووقف يدافع عنه، ويحميه من أذى قومه، وهو لم يزل على دينهم وعقيدتهم، وقال في ذلك:

وأبيضَ يُستسقى الغمامُ بوجهِه ثمالُ اليتامى عِصمةٌ للأراملِ

وفيها يقول:

ونُسلمَه حتّى نُصرّعَ حولَه ونذهلَ عن أبنائِنا والحلائلِ

أي: ولن نسلمه.

ولا عجب في ذلك كلّه فبعد أن توجّهت العناية الإلهيّة إلى الحبيب المصطفى ﷺ بغاية الحبّ والاجتباء والرضا، فإن من أثر ذلك أن يكون له القبول بين العباد وسائر خلق الله..

ولا تزال شواهد ذلك ودلائله تتكرّر وتعاد إلى يومنا هذا، والسعيد الموفّق من تقوده تلك العاطفة الصادقة إلى الإيمان والهداية.

* عدّة الأتقياء ليوم البعث والجزاء: ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ السَّاعَةِ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟ قَالَ: لا شَيْءَ إِلاّ أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ﷺ، فَقَالَ: (أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ) قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحَنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: (أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ)، قَالَ أَنَسٌ: فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ) (١).

ويعلّل الإمام القرطبيّ رحمه الله تعالى فرح الصحابة بذلك فيقول: " وإنما كان فرحهم بهذا القول أشدّ من فرحهم بسائر أعمال البرّ، أنهم لم يسمعوا أن في أعمال البرّ عملاً يحصل به ذلك المعنى من القرب من النبيّ ﷺ، والكون معه إلاّ حبّ الله ورسوله، فأعظِم بأمر يلحق المقصّر بالمشمّر، والمتأخّر بالمتقدّم.. ".

---

(١) . رواه البخاريّ في كتاب المناقب برقم /٣٤١٢/ و /٥٧٠١/ و/٥٧٠٥/ و/٦٦٢٠/ ومسلم في كتاب البرّ والصلة والآداب برقم /٤٧٧٥/ و/٤٧٧٨/، وكما يحمل هذا الحديث بشارة عظيمة، لمن يحبّ الله ورسوله ﷺ، وعباد الله الصالحين، فإنه يحمل تهديداً ووعيداً، وإنذاراً شديداً، لمن منح هذه النعمة العظيمة، والجوهرة الثمينة، جوهرة الحبّ، وإخلاص القلب، لمن لا يستحقّها، ممن يحادّ الله تعالى، ويكذّب رسوله ﷺ، ويحارب دين الله، ويكيد لأوليائه، بل يستحقّ نقيضها من البغض في الله تعالى، والمجاهدة والحرص على كسر الشوكة: { فليحذرِ الذين يخالفُون عن أمرِه أن تُصيبهم فتنةٌ، أو يُصيبهم عذابٌ أليمٌ } النور ٦٣.

فهل رأيت أخي المؤمن من ثمرة أعظم من المعيّة مع المحبوب.!؟

قال الله تعالى: ﴿ ومَن يُطع الله ورسولَه فأولئك مَع الذينَ أنعمَ الله عليهم مِن النبيين والصدّيقين والشهداءِ والصالحينَ، وحَسُنَ أولئكَ رَفيقاً (٦٩) ذلك الفضلُ مِن اللهِ، وكفَى باللهِ عليماً (٧٠) ﴾ النساء.

قال الإمام القرطبيّ في تفسيره لهذه الآية: " وقالت طائفة: إنّما نزلت هذه الآية لما قال عبد الله بن عبد ربّه الأنصاريّ ﷺ . الذي أري الأذان . يا رسول الله إذا متّ ومتنا كنت في علّيّين لا نراك، ولا نجتمع بك، وذكر حزنه على ذلك، فنزلت هذه الآية. وذكر مكّيّ عن عبد الله هذا وأنّه لما مات النبيّ قال: اللهم أعمني حتّى لا أرى شيئاً بعده، فعمي مكانه. وحكاه القشيريّ فقال: اللهم أعمني لا أرى شيئاً بعد حبيبي، حتّى ألقى حبيبي، فعمي مكانه. وحكى الثعلبيّ: أنّها نزلت في ثوبان مولى رسول الله، وكان شديد الحبّ له، قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغيّر لونه، ونحل جسمه، يعرف في وجهه الحزن، فقال له: يا ثوبان ما غيّر لونك.؟! فقال: يا رسول الله ما بي ضرّ ولا وجع، غير أنّي إذا لم أرك اشتقت إليك، واستوحشت وحشة شديدة حتّى ألقاك، ثمّ ذكرت الآخرة، وأخاف ألاّ أراك هناك، لأنّي عرفت أنّك ترفع مع النبيّين، وأنّي إن دخلت الجنّة كنت في منزلة هي أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل فذلك حين لا أراك أبداً فأنزل الله تعالى هذه الآية.

﴿ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم.. ﴾ أي هم معهم في دار واحدة، ونعيم واحد، يستمتعون برؤيتهم والحضور معهم، لا أنّهم يساوونهم

في الدرجة، فإنّهم يتفاوتون، لكنّهم يتزاورون للاتّباع في الدنيا والاقتداء. وكلّ من فيها قد رزق الرضا بحاله.. " (١).

* موازين الإيمان لا يعرفها إلاّ كمّل الرجال :

عَنْ زُهْرَةَ بْنِ مَعْبَدٍ عَنْ جَدِّهِ ﷺ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ﷺ، فَقَالَ: وَاللهِ لأَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلاّ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ عِنْدَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ، قَالَ عُمَرُ ﷺ: فَلأَنْتَ الآنَ وَاللهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: الآنَ يَا عُمَرُ) (٢).

وليس الجديد عند عمر ﷺ، هو حصول تلك المحبّة الراجحة للنبيّ ﷺ، وإنما الجديد هو إدراكه لتلك المحبّة والتفاته إليها، وتقرير ذلك أنه كان في أول الأمر قد امتحن نفسه أمام حبّ الولد والزوج والعشيرة، والمسكن والتجارة، فوجد حبّه لهذه الأشياء مرجوحاً بجانب حبّه لله ورسوله ﷺ، ولم يكن قد جرى بعد في خاطره حديث المقارنة بين حبّه لرسول الله ﷺ وحبّه لنفسه، فلم يجرؤ أن يحكم فيه بشيء بل استثنى نفسه من تلك المقارنة، سكوتاً عن الحكم بما لم يختبر، لا حكماً برجحان حبه لنفسه، فلما نبّهه النبيّ ﷺ، فكّر وقارن وتحسّس حال قلبه، فإذا هو يجد من رجحان محبّته لرسول الله ﷺ

(١). تفسير القرطبيّ ٥/٢٧٢.

(٢). رواه الإمام أحمد في مسند الشاميّين برقم /١٧٣٥٥/.

على محبّته لنفسه، ما كان غافلاً عنه، لا ما كان خلواً منه، فقوله ﷺ: (الآنَ يَا عُمَرُ) ومعناه: الآن أصبت في قولك، وأحسنت التعبير عما في نفسك.

قال الإمام القرطبيّ رحمه الله تعالى: "كل من آمن بالنبيّ ﷺ إيماناً صحيحاً، لا يخلو عن وجدان شيء من تلك المحبّة الراجحة، غير أنهم متفاوتون؛ فمنهم من أخذ من تلك المرتبة بالحظّ الأوفى، ومنهم من أخذ بالحظّ الأدنى، كمن كان مستغرقاً في الشهوات محجوباً بالغفلات في أكثر الأوقات، لكن الكثير منهم إذا ذكر النبيّ ﷺ اشتاق إلى رؤيته، بحيث يؤثرها على أهله وماله وولده، ويبذل نفسه في الأمور الخطيرة، ويجد رجحان ذلك من نفسه وجداناً لا تردّد فيه.. والناس متفاوتون في محبّته ﷺ، بحسب استحضار ما وصل إليهم من جهته عليه الصلاة والسلام من النفع الشامل لخير الدارين، أو الغفلة عن ذلك، ولا شكّ أن حظّ الصحابة ﷺ في هذا المعنى أتمّ، لأن هذا ثمرة **المعرفة**، وهم بها أعلم".

* وعليّ المرتضى يكشف سرّ الخيريّة العظيم:

قال عليّ ﷺ: "كان رسول الله ﷺ أحبّ إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمّهاتنا، ومن الماء البارد على الظمأ".

* وأمّهات المؤمنين يعلّمن موازين الولاء والبراء: دخل أبو سفيان على ابنته أم حبيبة أم المؤمنين رضي الله عنها، في مدة صلح

الحديبية، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ، طوته عنه، فقال: يابنيّة ! ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني.؟ قالت: **بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت امرؤ مشرك نجس،** فقال لها: لقد أصابك بعد أبيك شرّ.

* طاعة واتّباع وولاء لا يتزحزح:

وكان من شدّة طاعة الصحابة له ﷺ، والتزامهم بأمره، أنه ﷺ نهى أهل المدينة عن كلام الثلاثة الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك، فما كان من الناس إلا أن أطاعوه، وأصبحت المدينة لهؤلاء كأنها مدينة الأموات، ليس بها داع ولا مجيب، يقول كعب بن مالك رضي الله عنه: ".. ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيّها الثلاثةُ، مِن بينِ مَن تخلّفَ عنه، قالَ: فاجتنبَنا الناسُ، أو قَالَ: تَغيّرُوا لنا، حَتّى تَنكّرَتِ لي نفسُ الأرض، فمَا هيَ بالأرضِ التي أعرِفُ.. إلى أن قَالَ: حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَوَاللهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلامَ فَقُلْتُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدُكَ بِاللهِ هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ.؟ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَقَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الجِدَارَ..) [1].

(١) . رواه البخاري في كتاب المغازي برقم /٤٠٦٦/.

. وكان من عجيب حبّه وطاعته ﷺ، وهو محلّ عتاب وجفوة: أن رسول الله ﷺ، أرسل إليه رسولاً يقول له: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقال: أطلّقها أم ماذا أفعل.؟ فقال: لا، بل اعتزلها، فلا تقربنّها، فقال لامرأته: الحقي بأهلك، فكوني عندهم، حتى يقضي الله في هذا الأمر.

فانظر أخي المؤمن.! لو أنّ رسول الله ﷺ أمرهم أن يطلّقوا نساءهم أما كانوا يفعلون ذلك بغير تردّد أو تلكّؤ، ويثبتون بذلك إيثارهم لحبّ رسول الله ﷺ وطاعته على حبّ الزّوجة والرغبة فيها.؟!

. وكان أيضاً من حبّ كعب بن مالك ﷺ للرسول ﷺ، وإيثاره على كل أحد في الدنيا، وعلى إغراء الدنيا وفتنتها: أن ملك غسّان أرسل إليه يخطب ودّه، ويستلحقه بنفسه، وتلك من أعظم المحن في حال الجفوة والهجر، ولكنه رفض ما عرض عليه، ولم يتزعزع إيمانه وثقته وحبّه، يقول ﷺ: (.. قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّأْمِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالمدِينَةِ يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ، حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَاباً مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلا مَضْيَعَةٍ، فَالحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ،

فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وَهَذَا أَيْضاً مِنْ البَلاءِ، فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ، فَسَجَرْتُهُ بِهَا..) (١).

* ومن غرائب الطاعة للرسول ﷺ وإيثاره على النفس والأهل والعشيرة: ما روى ابن جرير بسنده عن ابن زيد قال: دعا رسول الله ﷺ عبد الله بن عبد الله ابن أبيّ رضي الله عنه، قال: ألا ترى ما يقول أبوك.؟ ـ وأبوه هو رأس المنافقين ـ قال: ما يقول.؟ بأبي أنت وأمي، قال: يقول: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ، فقال: فقد صدق والله يارسول الله، أنت والله الأعزّ، وهو الأذلّ، أما والله لقد قدمت المدينة يارسول الله وإن أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبرّ مني، **ولئن كان يرضي الله ورسوله أن آتيهما برأسه لأتيتهما به،** فقال رسول الله ﷺ: لا، فلما قدموا المدينة قام عبد الله بن عبد الله ابن أبيّ على بابها بالسيف لأبيه، ثمّ قال: أنت القائل: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ.؟ **أما والله لتعرفنّ العزّة لك أو لرسول الله ﷺ ! والله لا يؤويك ظلّ، ولا تأويه أبداً إلا بإذن من الله ورسوله ﷺ**، فقال: يا للخزرج.! ابني يمنعني بيتي، يا للخزرج.! ابني يمنعني بيتي، فقال: والله لا يأويه أبداً إلا

(١) . رواه البخاري في كتاب المغازي برقم /٤٠٦٦/.

بإذن منه، فاجتمع إليه رجال فكلّموه، فقال: والله لا يدخله إلا بإذن من الله ورسوله، فأتوا النبيّ ﷺ فأخبروه فقال: اذهبوا إليه فقولوا له: خلّه ومسكنه، فأتوه فقال: **أما إذا جاء أمر النبي ﷺ فنعم** !".

* ومن عجائب المسارعة في الطاعة، وسرعة الاستجابة، والخروج عن أهواء النفس ومألوفاتها: ما حدث عند نزول تحريم الخمر، وكان بعض الصحابة في مجلس شرب، فبلغهم الخبر وبعض القوم شربته في يده، شرب بعضاً، وبقي بعض في الإناء، فقال بالإناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجّام، ثم صبّوا في باطيتهم وقالوا: **انتهينا ربّنا.! انتهينا ربّنا.!**

* ثمرات لا تفنى، وعجائب لا تبلى: **وبعد؛** فلا يزال الحبّ الصادق، يثمر على مرّ القرون ثمراته الطيّبة المباركة، ويتخرّج في مدرسته العامرة كبار الأئمّة الربّانيين، والأبرار المتقين، من مختلف طبقات الأمّة، الذين ضربوا أبلغ الأمثال، وقدّموا أرقى النماذج في الطاعة والانقياد، والتضحية والفداء، فهذا رجل من السلف يقول: " **والله ! لو أمرنا رسول الله ﷺ، بقطع الأعناق لقطعناها** ".

. وإنّ لسان المحبّ ليردّد في كلّ حال مع من قبله من المحبّين الصادقين:

عذابُه فيكَ عذبُ وبعدُه فيكَ قُربُ
وأنتَ عِندي كرُوحِي بل أنتَ مِنها أحَبُّ
حسبي مِن الحبِّ أنّي لما تحِبُّ أُحبُّ

بحبّكَ أصفُو وَالحيَاةُ مَريرةٌ وَبِاسمِكَ أسلُو وَالأنامُ غِضَابُ

وَلَيتَ الذِي بَيني وَبَينَكَ عَامِرٌ وَبَيني وَبَينَ العَالمِينَ خَرابُ

إذا صَحَّ مِنكَ الوُدُّ فَالكُلُّ هَيّنٌ وَكُلُّ الذِي فَوقَ التُّرَابِ تُرابُ

* ومن آثار المحبة الصادقة الشوق إلى لقاء الله والتعلّل بالرجاء:

قال الله تعالى: ﴿ **من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآتٍ..** (٥) ﴾ العنكبوت.

قيل: هذا تعزية للمشتاقين وتسلية لهم.

أي: أنا أعلم أن من كان يرجو لقائي فهو مشتاق إليّ، فقد أجّلتُ له أجلاً يكون عن قريب، فإنّه آتٍ لا محالة، وكل آتٍ قريب.

وفيه لطيفة أخرى، وهي تعليل المشتاقين برجاء اللقاء:

لولا التعلل بالرجاء لقُطّعت نفس المحب صبابة وتشوّقا

حتى إذا رَوْحُ الرجاء أصابه سكن الحريق إذا تعلّق باللقا

وقد روي عن بلال ﷺ أنه لما حضرته الوفاة بكت بعض بناته، وقلن: واحزناه.! فأفاق وقال ﷺ: " **بل واطرباه.! غداً ألقى الأحبّة، محمّداً وصحبه** ".

* وختاماً : إنه لا حياة للقلب إلاّ بمحبّة الله تعالى، ومحبّة رسوله ﷺ، ولا عيش إلاّ عيش المحبّين، الذين قرّت أعينهم بحبيبهم، وسكنت نفوسهم إليه، واطمأنّت قلوبهم به، واستأنسوا بقربه، وتنعّموا بمحبّته، ففي القلب فراغ لا يسدّه شيء إلا محبّة

الله تعالى، ومحبّة رسوله ﷺ، ومن لم يظفر بذلك فحياته كلّها هموم وغموم، ونكد وكدر، وآلام وحسرات.

قال الإمام ابن القيّم رحمه الله تعالى:

" ولن يصل العبد إلى هذه المنزلة العليّة، والمرتبة السنيّة، حتى يعرف الله، ويهتدي إليه، بطريق توصله إليه، ويخرق ظلمات الطبع بأشعّة البصيرة، فيقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة، فينجذب إليها بكليّته، ويزهد في التعلّقات الفانية، ويدأب في تصحيح التوبة، والقيام بالمأمورات الظاهرة والباطنة، وترك المنهيّات الظاهرة والباطنة، ثمّ يقوم حارساً على قلبه، فلا يسامحه بخطرة يكرهها الله تعالى، ولا بخطرة فضول لا تنفعه، فيصفو بذلك قلبه بذكر الله ومحبّته والإنابة إليه، فحينئذ يجتمع قلبه وخواطره وحديث نفسه، على إرادة ربه وطلبه والشوق إليه، فإذا صدق في ذلك رزق محبّة الرسول ﷺ، واستولت روحانيّته على قلبه، فجعله إمامه وأستاذه ومعلّمه وشيخه وقدوته، كما جعله الله نبيّه ورسوله وهاديه، فيطالع سيرته ﷺ، ومبادئ أموره، وكيفيّة نزول الوحي عليه، ويعرف صفاته وأخلاقه، وآدابه وحركاته وسكونه، ويقظته ومنامه، وعبادته ومعاشرته لأهله وأصحابه إلى غير ذلك مما منحه الله تعالى حتّى يصير كأنّه معه من بعض أصحابه ".

* والصحبة الصالحة هي السبيل وهي العون والدليل:

واعلم أخي المؤمن.! أنّه لا سبيل لك يبلّغك ذلك، ولا وسيلة تسير بك إلى هذه الغاية الجليلة، وتختصر لك الطريق كلّه سوى الصحبة الصالحة، صحبة أهل العلم والإيمان، والخشية والإحسان، صحبة من يذكّرك بالله حاله، وينهض بك إلى الله مقاله، من إخوان الصدق، ودعاة الحقّ، الذين عرفوا الدنيا على حقيقتها، فتجرّدت قلوبهم عن أعراضها الفانية، وزهدوا بحطامها الزائل، وأقبلت قلوبهم على الآخرة بعزم وهمّة، وامتلأت منها، إنهم أهل الطاعة والحبّ والاتّباع، الذين سلكوا الطريق قبلك، وعرفوا مداخله ومخارجه، وعقباته وغوائله، إنهم لا تراهم إلاّ في أسنى الأحوال الإيمانيّة، والمنازل العليّة، هم أهل الصدق في الطاعة لله تعالى، والاتّباع لرسوله ﷺ، والنصح لعباد الله، والشفقة عليهم.

وقد زهد بمثل هذه الصحبة كثير من الناس في هذا العصر، وظنّوا أنهم يستطيعون الاستعاضة عنها بالرجوع إلى الكتب، وجمعها ومطالعتها، ولو كان البلاغ لدين الله تعالى تغني عنه الكتب، لشاء الله تعالى أن ينزل على عباده من كتابه الكريم نسخاً، يقرءونها، ويكون لهم البلاغ بها، وتقوم بها الحجّة عليهم، ولكن الأسوة في حياة البشر لابدّ منها، وقضى الله أن يكون التأثير بالحال أعظم من التأثير بالمقال، وإن هذا العلم دين، فانظروا عمّن تأخذون دينكم. والله يقول الحقّ، وهو يهدي السبيل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

* رجاء محبّ: وبعد؛ فلا أحسبك يا أخي.! إذا كنت محبّاً صادقاً أن تكتفي بقراءة هذه الرسالة مرّة واحدة.. فإن هي إلاّ ذكرى لمحبّ بمن يحبّ، ولا أحسب المحبّ يملّ من ذكرى حبيبه، وما أحوجنا إلى تجديد الذكرى.!

وإذا كنت انتفعت بهذه الرسالة، فما أحراك أن تخصّ كاتبه بدعوة صالحة، أن يتقبّله الله منه، ويجعله نوراً في ميزان حسناته، وذخراً له يوم يفرّ من سيئاته، وأن تدعو لوالديّ ولمشايخي وللمسلمين، ولنفترق على عهد صادق.. عهد الحبّ في الله تعالى، أوثق عرا الإيمان، وأخلص علائق الحياة وأصفاها؛ فإني أحبّك في الله، فلا تنسني ياأُخيّ من دعائك.! وأستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك، والله يتولاّنا وإيّاك برحمته وهداه..

* دعاء وضراعة

جاء في جامع الترمذي عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: كَانَ مِنْ دُعَاءِ دَاوُدَ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَالْعَمَلَ الَّذِي يُبَلِّغُنِي حُبَّكَ اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ

مِنْ نَفْسِي وَأَهْلِي وَمِنْ الْمَاءِ الْبَارِدِ قَالَ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَكَرَ دَاوُدَ يُحَدِّثُ عَنْهُ قَالَ كَانَ أَعْبَدَ الْبَشَرِ) (١).

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ الخَطْمِيِّ الأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: (اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ، اللَّهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ، اللَّهُمَّ وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغاً لِي فِيمَا تُحِبُّ) (٢).

اللهم إني أسألك حبّك وحبّ عبدك ونبيّك محمّد ﷺ، وحبّ من يحبّك، والعمل الذي يبلغني حبّك، اللهم اجعل حبك أحبَّ إليَّ من نفسي، وأهلي ومالي، ومن الماء البارد على الظمأ.

اللهمّ حبّب إلينا الإيمان، وزيّنه في قلوبنا، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

اللهُمّ يا حبيبَ التائبينَ، ويا سرورَ العابدين، ويا قُرّةَ أعينِ العارفين، ويا أنيسَ المنفردين، ويا حِرزَ اللاجئين، ويا ظَهر المنقطعِين، ويا مَن حنّت إليهِ قلوبُ الصدّيقين، اجعلنا مِن أوليائِكَ المقرّبينَ، وحِزبِك المفلحين.

---

(١) . رواه الترمذي في كتاب الدعوات عن رسول الله برقم /٣٤١٢/ وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

(٢) . رواه الترمذي في كتاب الدعوات عن رسول الله برقم /٣٤١٣/ وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ وَأَبُو جَعْفَرٍ الْخَطْمِيُّ اسْمُهُ عُمَيْرُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ خُمَاشَةَ.

سُبحانَ مَن نوّرَ بمعرفتِه قلوبَ أحبابِه، وطهّرَ سرائرَهم فتمتّعُوا بخطابِه.. يا خيبةَ مَن لم يؤيّدْه الحكيمُ الحليم، يا حسرةَ مَن لم يقبلْه المِلِكُ العظيم، يا مُصيبةَ مَن فاتَه هذا الجودُ العميم.

اللهُمَّ يا حبيبَ كلِّ غريب، ويا أنيسَ كلِّ كئيب..

أيُّ منقطعٍ إليكَ لم تكفِه بنعمتِك؟

أم أيُّ طالبٍ لم تلقَه برحمتِك.؟

أم أيُّ محبٍّ خلا بذكرِك فلم تُؤنِسْه.؟

أم أيُّ داعٍ دعاكَ مُضطرّاً فلم تجِبْه.؟

رَبِّ كمْ مِن نعمةٍ أنعمتَ بها عليَّ قلَّ لكَ عندَها شُكري، وكمْ مِن بليّةٍ ابتليتَني بِها قلَّ لكَ عندَها صبري، فيا مَن قلَّ عندَ نعمتِه شُكري فلم يحرِمني، ويا مَن قلَّ عندَ بليّتِه صبري فلَم يخذُلني، ويا مَن رآني علَى المعاصِي فلمْ يفضَحني، ويا ذا النعمِ التي لا تُحصَى أبداً، ويا ذا المعروفِ الذي لا يَنقطِعُ أبداً، اغفر لي جرائِمي وتَفريطي، وأعِنّي على دِيني بدُنياي.

اللهُمَّ يا مَن يملِكُ حوائِجَ السائلين، ويَعلَمُ ضَمائِرَ الصامتين، يا مَن ليسَ معهُ ربٌّ يُدعَى، ويا مَن ليس فوقهُ خالقٌ يُخشَى، ويا مَن ليسَ لهُ وَزيرٌ يُؤتَى، ولا حاجِبٌ يُرشَى، يا مَن لا يزدادُ على كَثرةِ السؤالِ إلاّ جُوداً وكرماً وعلى كثرةِ الحوائِجِ إلاّ تَفضّلاً وإحساناً.

اللهُمَّ يَا مَن لا يَشغلُه شأنٌ عَن شأنٍ، ولا سَمعٌ عن سمع، ولا تَشتبِهُ عليهِ الأصوات ولا تختَلِفُ عليهِ اللغات، ولا تُغلِّطُه المسائل.

يا مَنْ لا يُبرِمُه إلحاحُ الملحِّين، ولا تُضجِره مَسألةُ السائلين، أذقْنا بَردَ عفوِك، ولذّةَ مناجاتِك.

إلهِي قد وجدتُكَ رَحيماً، فكيفَ لا أرجُوك.؟ ووجدتُك ناصِراً مُعيناً، فكيفَ لا أدعُوك.؟

إلهِي مَن لي إذا قطعتني.؟ ومَن ذا الذي يَضُرُّنِي إذا نَفَعتَني؟ ومَن ذا الذي يُعذِّبني إذا رَحِمتَني؟ ومَن ذا الذي يَقرَبُني بِسُوءٍ إذا نجَّيتَني.؟ ومَن ذا الذي يُمرِضُنِي إذا عافيتَني؟

يا ذا الجلالِ والإكرام، يا عزيزُ لا تحيطُ بجلالِه الأوهام، يا مَن لا غِنىً لشيءٍ عنه، وهو الغنيّ عن كُلّ شيءٍ، يا مَن لابُدَّ لِكلِّ شَيءٍ منه، يا مَن رِزقُ كلِّ شَيءٍ عليه، ومَصيرُ كُلِّ شيءٍ إليه، يا مَن يُعطي مَن لا يَسألُه، ويجودُ على مَن لا يُؤمِّلُه، ها نحنُ عبيدُكَ الخاضعونَ لهيبتِك، المتذلّلونَ لعزِّك وعظمتِك، الراجُون جميلَ رَحمتِك وعَفوِك، أمرتَنا ففرَّطنا، ولم تَقطَعْ عنّا نِعمَك، ونَهيتَنا فعَصينا ولم تَقطَعْ عنّا كرمَك، وظلَمْنا أنفسَنا مَعَ فقرِنا إليك، فلم تقطَعْ عنّا غِناكَ يا كريم.

اللهُمَّ أنتَ أحقُّ مَن ذُكر، وأحقُّ مَن عُبِد، وأنصرُ مَن ابتُغِيَ، وأرأفُ مَنْ ملَكَ، وأجودُ مَن سُئل، وأوسعُ مَن أعطى.

أنتَ المِلِكُ لا شَرِيْكَ لك، والفردُ لا نِدَّ لك، كلُّ شيءٍ هالكٌ إلاّ وجهَكَ، لن تُطاعَ إلاّ بإذنِكَ، ولنْ تُعصَى إلاّ بِعلمِكَ، تُطاعُ فتَشكُرُ، وتُعصَى فتَغفِر.

تمّ نورُك فهديتَ فلَكَ الحمدُ، عظُمَ حِلمُكَ فعفوتَ فلَكَ الحمدُ، بَسطتَّ يدَك فأعطيتَ فلَكَ الحمدُ، ربَّنا وجهُك أكرمُ الوجُوهِ، وجاهُك أعظمُ الجاه، وعطيّتُك أفضلُ العطيّة وأهناها.

تُطاعُ ربَّنا فتَشكرُ، فلكَ الحمدُ، وتُعْصَى ربَّنا فتَغفرُ، فلكَ الحمدُ، وتُجيبُ المضطَرَّ، وتَكشِفُ الضُّرَّ، وتَشفي السقم، وتَغفرُ الذنبَ، وتقبلُ التوبةَ، ولا يجزِي بآلائِك أحدٌ، ولا يَبلغ مِدحتَك قولُ قائِلٍ.

سُبحانَكَ يا ربِّ فيكَ المرغُوب، ومِنْكَ المطلُوبُ والمرهُوب، أنتَ الحقُّ الَّذِي لا حَقَّ سِواه، ولا معهُ غيرُه ولا شَيءَ لولاه، لَكَ العظمَة والسُّلطان، والمِلكُ والقدرةُ ورِفعةُ الشان.

خلقْتَ الخلْقَ رحمةً مِنكَ مِن غيرِ حاجةٍ لكَ فِي خلْقِهم ورزقِهم، ومددتَهم بما شِئتَ مِنَ النعم، وتكفّلتَ بأجلِهم ورزقِهم.

إلهِي لكَ الحمدُ وسِعتَ كُلَّ شَيءٍ رَحمةً وعِلماً، غَفرتَ الذنُوب، وسترتَ العُيُوب، حَناناً منكَ ورأفةً وحِلماً.

اللهُمَّ إنّكَ وليٌّ حَميد، جَواد وفيٌّ مجيد، كاشفُ الكرُبات، وباسِطُ الخيرات، ومُغدِقُ البرَكَات، ومجيبُ الدعَوات، ورَبُّ الأرضينَ والسموات،

قولُكَ الحقّ، ووَعدُك الصدق، وقد وعدتَّ بالنجاةِ عبادَك المؤمنين، لا إلهَ إلاّ أنتَ سبحانَك إنّي كُنتُ مِن الظالمين.. وَعدَك وَعدَك يا رَبَّ العالمين.

اللهُمَّ يا سابقَ الفَوت، ويا سامِعَ الصوت، ويا كاسيَ العِظامِ لحماً بعدَ الموت، أنتَ ربّي ورَبُّ الأربَاب، ومُسيّرُ السحَاب، ومُعتِقُ الرقاب.

اللهُمَّ يا أرحمَ الراحمينَ، يا رحمنَ الدنيا والآخرةِ ورَحِيمَهُما إنّي عَبدُكَ ببابِك، ذَليلُكَ بِبابِكَ، أسيْرُك بِبابِك، مِسكِينُكَ بِبابِك، ضَيفُك بِبابِك، يا رَبَّ العالمين، عَبدُكَ الطالح بِبابِك، يا غياثَ المستَغِيثين، مَهمُومُك بِبابِك، يا كاشفَ كُرَبِ المكرُوبين.

إلهي ! أنتَ الغافرُ وأنا المسيءُ، وهَل يَرحَمُ المسيءَ إلاّ الغافِرُ؟

إلهي ! أنتَ الربُّ وأنا العبدُ، وهل يَرحَمُ العبدَ إلاّ الربّ؟

إلهي ! أنتَ المالِكُ وأنا المملُوكُ، وهل يَرحَمُ المملُوكَ إلاّ المالِك؟

إلهي ! أنتَ العزيزُ وأنا الذليلُ، وهل يَرحَمُ الذليلَ إلاّ العزيز؟

إلهي ! أنتَ الكريمُ وأنا اللئيمُ، وهل يَرحَمُ اللئيمَ إلاّ الكريم؟

إلهي ! أنتَ الرزّاقُ وأنا المرزُوقُ، وهل يَرحَمُ المرزوقَ إلاّ الرزّاق؟

أنتَ تَعلمُ سِرّي وعَلانيتي فاقبلْ مَعذرَتي يا إلهي !

آهِ مِن كثرةِ الذنُوبِ والعِصيان ! آهِ مِن وحشةِ الجفاءِ والحِرمان.!

آهِ مِن الإفلاسِ يَومَ تُكشَفُ الأستار، وتَفضَحُ الأوزارُ، ولا يَنْفَعُ اعتذار !

اللّهُمَّ اجعلني ممّن يحبُّك، ويحبُّ مَلائكتَك، ويحبُّ رُسُلَك، ويحبُّ عِبادَكَ الصالحين.

اللّهُمَّ حَبّبني إليكَ، وإلى مَلائكتِكَ، وإلى رُسُلِكَ، وإلى عِبادِك الصالحين.

سُبحانَكَ اللهُمَّ ربّنا وبحمدِكَ، وتبارَكَ اسمُكَ، وتعالى جدّكَ ولا إله غيرك.

تمّت

بحمد الله تعالى وحسن توفيقه، وصلّى الله وسلّم وبارك على عبده

ونبيّه سيّدنا محمّد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين.

أهمّ المراجع

. القرآن الكريم.
. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. محمّد فؤاد عبد الباقي.
. التفسير الكبير. للأمام الرازي.
. رياض الصالحين. للإمام النووي. طبعة محقّقة.
. السيرة النبويّة. لابن هشام.
. الإيمان بالرسل، للشيخ أحمد عزّ الدين البيانوني.
. الطريق إلى المدينة للشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي.
. علّموا أولادكم حبّ النبيّ ﷺ. للدكتور محمّد عبده يماني.
. فتح المجيب في مدح الحبيب. للشيخ عيسى البيانوني.
. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي.
. مجموعة العبادات في الفقه الحنفي للشيخ أحمد عزّ الدين البيانوني.
. مدارج السالكين. للإمام ابن قيّم الجوزيّة.
. المواهب اللدنيّة للزرقاني.
. دراسات غير منشورة ومن ملفّات خطب الجمعة للمؤلّف.

المحتوى

تصدير.

مُقَدِّمَة

قوى الإنسان ومكانة الحبّ والعاطفة بينها

الحبّ لله ورسوله ﷺ أعظم المقامات وأرفع المنازل

مفقود لا يعوّض بشيء

روح البطولة وسرّ العظمة

الإفلاس المروّع

مسئوليّة الدعاة المجدّدين

دعاوى المحبّة وبيّناتها

شجرة الحبّ وسقياها

شرف الحبّ ومنزلته

الحبّ هو المرتقى الصعب والمنهل العذب

إشارات ونفثات

الحبّ ينفع ويرفع، ويدفع ويشفع

التربية على الحبّ

من أجمع ما قيل في الحبّ

شوق المحبّ ودموعه

ما أبعد الناس عن هذا المنهل الكريم.!؟

خطر الرسوم والمظاهر في الجناية على حقائق الدين

التكريم الصادق والحبّ المقبول

كيف السبيل إلى الحبّ الصادق؟ وما أسبابه.؟

المحبّة الفطريّة وأسبابها

فطرة الحبّ نعمة إلهيّة مغبون فيها كثيرون

نماذج من أقوال الصحابة في حبّهم للنبيّ ﷺ

أسباب نيل محبّة الله تعالى، ومحبّة رسوله ﷺ

محبّة الله تعالى لعبده، ومحبة العبد لربه

والذي أجمع عليه العارفون

كيف تنبت المحبّة.؟ وكيف تثبت.؟

من أعظم منة الله تعالى على عبده

العلاقة بين الحقّ والصدق والحبّ

مواقف الحبّ، وثمرات المعرفة والقرب

أعظم ثمرات الحبّ الصادق

نماذج فذّة، ومواقف نادرة

دقّة الطاعة والجنديّة الصادقة

وللنساء نصيب كبير من الحبّ والفداء

عندما يشتدّ البأس تظهر حقائق الحبّ المكنون

وأي برهان أعظم من التضحية والفداء.؟!

شهادة من أبي سفيان تكشف عن خطر الحبّ

ويوم الحديبية قدّم الصحب أكبر شهادة

عدّة الأتقياء ليوم البعث والجزاء

موازين الإيمان لا يعرفها إلاّ كمّل الرجال
وعليّ المرتضى يكشف سرّ الخيريّة العظيم
وأمّهات المؤمنين يعلّمن موازين الولاء والبراء
طاعة واتّباع وولاء لا يتزحزح
ومن غرائب الطاعة للرسول ﷺ وإيثاره
ومن عجائب المسارعة في الطاعة
ثمرات لا تفنى، وعجائب لا تبلى
ومن آثار المحبة الصادقة: الشوق إلى اللقاء
وختاماً
دافع تحصيل الحبّ، وأعظم به من دافع.!
والصحبة هي السبيل وهي العون والدليل
رجاء محبّ
دعاء وضراعة
أهمّ المراجع

المحتويات

* صدر للمؤلّف *

١ ـ ضرب الأمثال في القرآن أهدافه التربويّة وآثاره.

٢ ـ وجوب وحدة المسلمين.

٣ ـ رسالة المعلّم وآداب العالم والمتعلّم.

٤ ـ اعرف نبيّك محمّداً ﷺ يا بنيّ. !

٥ ـ ومضات من هدي النبيّ الخاتم ﷺ.

٦ ـ البيّنات في تفسير سورة الحجرات.

٧ ـ المنهج القويم للداعية الحكيم.

٨ ـ مشاهد الأتقياء في الصبر على الابتلاء.

٩ ـ رسالتان في التربية.

١٠ ـ قصص وعبر من لطائف القدر. المجموعة الأولى.

١١ ـ قصص وعبر من عجائب القدر. المجموعة الثانية.

١٢ ـ حديث القلب.

١٢ ـ النصائح الذهبيّة لتربية الأولاد ورعايتهم.

١٣ ـ قبسات من نور النبوّة لصاحبي الفضيلة: الشيخ أحمد عزّ الدين البيانوني، والشيخ عبد الفتّاح أبو غدّة رحمهما الله تعالى. بعناية د. عبد المجيد البيانوني، وفي ختامه رسالة: " ومضات من هدي النبيّ الخاتم ﷺ ".

١٤ ـ تذكرة العابد بحقوق المساجد.

١٥ ـ أساليب تربويّة ومفاهيم دعويّة من حياة الشيخ أحمد عزّ الدين البيانوني.

١٦. ركائز دعويّة من هدي النبيّ ﷺ في العلاقات الاجتماعيّة.

١٧ ـ القول المبين في تفسير سورة: " يس ".

١٨ ـ لمحات من حياة الشيخ أحمد عزّ الدين البيانوني وتعريف بمؤلّفاته.

١٩ ـ مواقف تربويّة من هدي النبيّ ﷺ مع الأطفال.